التوراة

(الكتاب المقدس)

obeikandl.com

obeikandl.com

لمحة عامة

من مؤلف العهد القديم ؟

كم من قراء العهد القديم الذين قد يطرح عليهم هذا السؤال ولن يجيبوا إلا بترديد ما قرءوا فى مقدمة كتابهم العهد القديم . كم من هؤلاء القراء سيردد أن مؤلف كل هذه الكتب هو الرب برغم أنها كتبت بأقلام بشر ألهمهم الروح القدس ..؟

أحياناً يكتفى مؤلف مقدمة الكتاب المقدس بأن يجيب بهذا الجواب المقتضب على قارئه حتى يسد الطريق على أى تساؤل . وأحياناً أخرى يضيف إليها تصحيحاً يقول فيه إن هناك تفاصيل قد أضافها بشر إلى النص الأول وأن الطابع المشكوك فيه لفقرة ما فى هذا النص لا تحرف « الحقيقة » العامة التى تنبع منه . هناك إصرار على هذه الحقيقة التى تتكفل الكنيسة دائماً بضمان صحتها ، يعينها على ذلك الروح القدس والكنيسة هى وحدها القادرة على إيضاح هذه النقاط للمؤمنين . بل لقد نشرت الكنيسة منذ مجامع القرن الرابع المسكونية قائمة بالكتب المقدسة . وأيدت هذه القائمة المجامع المسكونية التى انعقدت بفلورنسا Florence (١٤٤١) وترانت Trente (١٥٤٦) والفاتيكان ١ Vatican I (١٨٧٠) ، بحيث إنها تشكل ما يسمى بالقانون Canon . ومنذ عهد قريب قام آخر مجمع للفاتيكان الثانى Vatıcan II (١٩٦٢ – ١٩٦٥) ، بعد كثير من الرسائل البابوية ، بنشر نص عن التنزيل الإلٰهى . وهو نص ذو أهمية كبيرة ، عمل المجمع طيلة ثلاث سنوات لإعداده ، وقد تم هذا النص وسط صعوبات جمة . وتجد الغالبية العظمى من قراء الكتاب المقدس هذه المعلومات المطمئنة على رأس الطبعات الحديثة وتكتفى بالضمانات التى أعطتها الكنيسة عبر القرون ولم يرد بذهن هؤلاء القراء أن مسألة الصحة هذه أمر قابل للنقاش .

ولكن ، إذا حدث ورجع القارئ إلى المؤلفات التى كتبها بعض رجال الدين للخاصة

وليس لعامة الجمهور ، فسيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيداً مما كان يظن بداءة . وإذا استوضح طبعة الكتاب المقدس الحديثة التى ترجمت إلى الفرنسية تحت إشراف رئاسة مدرسة الكتاب المقدس بالقدس[١] فإنه سيكتشف أن نبرة الحَدِيثِ مختلفة جداً . وسيدرك أن العهد القديم ، كالعهد الجديد ، يثير مشاكل لا يخفى المفسرون عناصرها التى تسبب النزاع .

وهناك أيضاً دراسات أكثر إيجازاً وموضوعية فيها معطيات دقيقة كدراسة أدموند جاكوب Edmond Jacob . « العهد القديم »[٢] . ويعطى هذا الكتاب رؤية شاملة وكاملة عن المشكلة .

يشير أدموند جاكوب إلى أنه فى البدء لم يكن هناك نص واحد فقط ، بل كان هناك تعدد فى النصوص . ففى القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبرى للتوراة . كان هناك النص المحقق (الماسورى) Massorethique ، والنص الذى استخدم ، جزئيًا على الأقل ، فى الترجمة إلى اليونانية ، والنص المعروف بالسامرى (أو أسفار موسى الخمسة) : Pentateuque Samaritain . ثم بعد ذلك ، فى القرن الأول قبل الميلاد ، اتجاه إلى تدوين نص واحد . ولكن تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلا فى القرن الأول بعد الميلاد .

ولو كانت هذه المدونات الثلاثة موجودة الآن لأمكن إقامة المقارنات للوصول ، ربما إلى رأى عما كان عليه النص الأصلى ، ولكن يشاء سوء الحظ ألا تكون لدينا أقل فكرة عنه . إن أقدم نص عبرى للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد ، هذا إذا وضعنا جانباً أسطوانات مغارة قمران التى ترجع إلى ما قبل العصر المسيحى بقليل ، وبردية الوصايا العشر التى تختلف طفيفاً عن النص الكلاسيكى ، وبعض مخطوطات ناقصة ترجع إلى القرن الخامس بعد الميلاد (كنيسة القاهرة) .

وتعد الترجمة السبعينية Septante أول ترجمة ، وهى باللغة اليونانية . ويرجع

---

(١) Editions du Cerf, Paris.

(٢) Presses Universitaires de France, Collection 'Que sais-je?"

تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد . وقد قام بها يهود الإسكندرية . وعلى نصها اعتمد كتاب العهد الجديد . وقد ظلت معتمدة حتى القرن السابع بعد الميلاد . والنصوص اليونانية الأصلية التى يستخدمها عموماً العالم المسيحى هى المخطوطات المحفوظة باسم Codex Vaticanus فى الفاتيكان و Codex Sinaiticus المحفوظة بالمتحف البريطانى ويرجع تاريخ هذين المخطوطين إلى القرن الرابع بعد الميلاد .

أما فيما يخص توراة القديس إيرونيمس اللاتينية ، فيحتمل أن يكون قد استخدم وثائق عبرية ترجع إلى السنوات الأولى من القرن الخامس بعد الميلاد ، وتلك هى الطبعة التى سميت بـ Vulgate بسبب انتشارها الواسع بعد القرن السابع من العصر المسيحى .

ولنذكر أخيراً المدونات الآرامية والسريانية (Peschitta) . وهى جزئية غير كاملة .

لقد سمحت هذه المخطوطات المختلفة للمتخصصين بأن ينتهوا إلى إعداد النصوص المسماة «بالمتوسطة» ، وهى شيء أشبه بحلول وسط بين مختلف النسخ . أيضاً هناك مجموعات تحتوى ، بين دفتيها وجنباً إلى جنب ، على النسخ المختلفة أى العبرية واليونانية واللاتينية والسريانية والآرامية وحتى العربية . ذلك هو الكتاب المقدس الشهير بنسخة والتون Walton (لندن ١٦٥٧) . ولنضف ، حتى نكون كاملين ، أن الاختلاف بين الكنائس المسيحية حول مفاهيم الكتب المقدسة كان من شأنه إن لم تقبل كنائس نفس المذاهب نفس الأسفار بالتحديد ، كما أنه ليس لها حتى الآن رأى واحد فى الترجمة ، حتى فى نفس اللغة . وتطمح الترجمة المسكونية الجارية للعهد القديم إلى الانتهاء لنص شامل مركب : هى كتاب يهدف إلى توحيد النصوص يقوم به كثير من الخبراء الكاثوليكيين والبروتستانت .

بهذا تتضح ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم . وبهذا أيضاً يتبين القارئ التحولات التى أصابت نص العهد القديم الأول من نقل إلى نقل آخر ومن ترجمة إلى أخرى ، بكل ما ينجم حتماً عن ذلك من تصحيحات ، جاءت على أكثر من ألفى عام .

أصل الكتاب المقدس

كان الكتاب المقدس ، قبل أن يكون مجموعة أسفار ، تراثاً شعبيًّا لا سند له إلا الذاكرة ، وهى العامل الوحيد الذى اعتمد عليه نقل الأفكار . وكان هذا التراث يغنى .

ويقول أدموند جاكوب إن «كل شعب يغنى فى مراحل تطوره البدائية ، وفى إسرائيل ، كما حدث فى غيرها من البلاد ، سبق الشعر النثر . ولقد غنت إسرائيل كثيراً وكانت تحسن الغناء ، ولأن الظروف التاريخية كانت قد قادت إسرائيل إلى قمة الحماس كما قادتها إلى مهاوى اليأس ولأنها ساهمت بكل كيانها فى كل ما حدث لها حيث إنه كان لكل شىء معنى فى نظرها ، فإنها قد أعطت أغانيها تعبيرات شديدة التنوع » . كان الناس يغنون فى مختلف المناسبات . ويعدد ا. جاكوب هذه المناسبات التى يحتوى العهد القديم على الأغانى المصاحبة لها ومنها أغانى الطعام وأغنية الاحتفال بنهاية الحصاد ، وأناشيد العمل مثل « نشيد البئر » المشهور (سفر العدد . الإصحاح ٢١ ، ١٧) وأناشيد الزواج مثل « نشيد الإنشاد » وتراتيل الحداد وأناشيد الحرب وهى كثيرة فى العهد القديم ومن بينها « ترنيمة دبورة » (سفر القضاة . الإصحاح الخامس من ١ إلى ٣٢) وفيها تترنم بنصر إسرائيل الذى أراده يهوه فى نهاية حرب مقدسة قادها بنفسه (سفر العدد ، الإصحاح العاشر ٣٥) : « وعند ارتحال التابوت يقول موسى : قم يا رب فليتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك » .

وهناك أيضاً الحكم والأمثال (سفر الأمثال ، وأمثال وحكم الكتب التاريخية المقدسة) ، وأقوال البركات واللعنات والقوانين التى يستنها الأنبياء للبشر بعد أن وكلهم الله لذلك .

ويلاحظ أدموند جاكوب أن تناقل هذه الأقوال كان يتم إما عن طريق الأسرة وإما عن طريق المعابد فى شكل روايات لتاريخ شعب الله المختار . وقد تحول هذا التاريخ بسرعة إلى حكاية كمثل يوثام (سفر القضاة ، الإصحاح التاسع من ٧ إلى ٢١) . وفى هذا المثل « ذهبت الأشجار لتمسح عليها ملكاً فتتوجه أولاً إلى الزيتونة ثم إلى شجرة التين ثم إلى الكرمة

ثم إلى العوسج » . وهذا ما سمح لأدموند جاكوب بأن يقول : « إن الوظيفة الأسطورية فى الرواية لم يعبأ بما يتعلق بموضوعات وعصور كان تاريخها معروفاً بشكل سيئ » ويخلص أدموند جاكوب من هذا إلى ما يلى :

« يحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبى مع المجرى التاريخى للأحداث . ولكن الرواة كانوا يعرفون ، حتى فى هذه المرحلة من النقل الشفهى ، كيف يضفون الأناقة والخيال حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوع ، وقد نجحوا فى تقديم هذه الأحداث المختلفة فى شكل حكاية لما حدث فى أصل العالم والإنسان . ويستطيع العقل النقدى أن يراها ، فى نهاية الأمر ، معقولة بشكل كاف » .

هناك من الأسباب ما يسمح بالتفكير بأن الكتابة قد استخدمت لنقل التراث والحفاظ عليه وذلك بعد استقرار الشعب اليهودى ، بأرض كنعان ، أى فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ولكن لم يكن هذا بشكل لازم ، حتى بالنسبة لما كان يستحق الدوام فى نظر الناس ، أى القوانين . ومن بين القوانين هناك القانون الذى تنسب كتابته إلى يد الله نفسه ، أى الوصايا العشر ، وهى منقولة فى العهد القديم فى روايتين : الأولى فى سفر الخروج (الإصحاح العشرين من ١ إلى ٢١) وفى سفر التثنية (الإصحاح الخامس من ١ إلى ٣٠) . وروح الوصايا فى النصين واحد ولكن الاختلافات النصية واضحة . كان الاهتمام منصبًّا على تدوين الوثائق الهامة من عقود وخطابات وقوائم الشخصيات (القضاة وكبار الموظفين بالمدن وقوائم الأنساب) وقوائم القرابين وقوائم الغنائم . بهذا تكونت الأرشيفات التى أتت بالوثائق التى استخدمت بعد ذلك عند تحرير المؤلفات النهائية التى أدت إلى الكتب التى فى حوزتنا اليوم . بهذا الشكل أيضاً تختلط فى كل كتاب أنواع أدبية متنوعة : وما على المتخصصين إلا أن يبحثوا فى دوافع تجميع هذه الوثائق المتنافرة .

ومن المهم أن نقارب بين عملية تكوين هذا المجموع المتنافر الذى هو العهد القديم والذى اعتمد أولاً على النقل الشفهى وبين ما قد يحدث تحت سموات وأزمنة أخرى عند ميلاد أدب بدائى .

ولنأخذ على سبيل المثال مولد الأدب الفرنسى فى عصر مملكة الفرنجة Francs . إن

نفس هذا التراث الشفهى يسود من البداية وحتى حفظ الأحداث الهامة مثل الحروب وهى كثيراً حروب دفاع عن المسيحية ومآس مختلفة يبرز فيها الأبطال ، وهى التى ستلهم بعد ذلك بقرون الرواة والقصاصين وكتاب مختلف الحوليات . بهذا تولد ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى الشِعْرَ المَلْحَمِىّ Les chansons de geste التى يختلط فيها الواقع بالخرافة ، تلك الأغانى التى كونت فيما بعد أول نصوص الآداب الملحمية . ومن أشهر هذه الملاحم أنشودة رولان La Chanson de Roland وهى أغنية روائية حربية ، يبرز فيها رولان قائد مؤخرة جيش الإمبراطور شرلمان عند عودته من حملة إسبانية . وليست تضحية رولان حدثاً اخترع لمقتضى الحكاية . إذ يحدد تاريخها بـ ١٥ أغسطس عام ٧٧٨ م ، وما حدث فعلاً هو هجمة قام بها سكان الجبل الباسكيون على رولان . وليس المؤلف الأدبى هنا أسطوريًّا فقط ، إن له قاعدة تاريخية ، ولكن لا يمكن للمؤرخين أن يأخذوا بها حرفيًّا .

إن الموازنة بين مولد الكتاب المقدس ومثل هذا الأدب الدنيوى شىء يبدو أنه متفق بشكل دقيق مع الواقع . ولا تهدف هذه الموازنة ، مثلما يفعل كثير من منكرى الله المنهجيين ، إلى رفض نص الكتاب المقدس فى مجموعه ، ذلك النص الذى يحتفظ به النـاس فى متحف الآثار الأسطورية . يمكن عن حق الاعتقاد فى حقيقة الخلق وفى إعطاء الله الوصايا لموسى وفى تدخل الله فى شئون البشر فى عصر الملك سليمان على سبيل المثال ، كما نستطيع الاعتقاد بأن جوهر هذه الأحداث قد وصل إلينا فعلاً وفى نفس الوقت نستطيع أن نرى وجوب خضوع تفصيل وصف الأحداث لنقد صارم ، ذلك أن مساهمات البشر فى تدوين التراث الشفهى الأصلى كبيرة حقًّا .

أسفار العهد القديم

يتكون العهد القديم من مجموعة أسفار لا تتساوى فى الطول وتختلف فى النوع . كتبت هذه الأسفار على مدى يربو على تسعة قرون وبلغات مختلفة واعتماداً على التراث المنقول شفويًا . وقد صححت وأكملت أكثريةهذه الأسفار ، بسبب أحداث حدثت أو بسبب ضرورات خاصة ، وفى عصور متباعدة أحيانا .

ويبدو معقولاً أن ازدهار هذا الأدب الثرى يقع تاريخيًا فى بداية المملكة الإسرائيلية أى نحو القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ففى هذا العصر ظهرت فى البلاط الملكى هيئة الكتبة التى تتكون من مثقفين لا يقتصر دورهم على مجرد الكتابة والتدوين . وإلى هذا التاريخ يمكن إرجاع أولى المدونات ، تلك المدونات الجزئية جدًا التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق والتى كان لها أهمية خاصة حتى تدون كتابة : وهى بعض الأناشيد المذكورة أعلاه ونبوءات يعقوب وموسى والوصايا العشر والنصوص التشريعية عامة التى حددت تقليداً دينيًا قبل سن القوانين . كل هذه النصوص تكون قطعاً متفرقة فى مختلف مجموعات العهد القديم .

وبعد ذلك بقليل ، أى ربما فى القرن العاشر قبل الميلاد ، تم تحرير النص المعروف بالرواية اليهوية [1] التى شكلت فيما بعد بنية الأسفار الخمسة التى عرفت باسم أسفار موسى الخمسة . وقد أضيفت إلى هذا النص بعد ذلك الرواية المعروفة بالألهيمية [2] والرواية الأخرى المعروفة بالكهنوتية [3] . ويعالج النص اليهوى الأول الفترة من أصل العالم وحتى موت يعقوب . وهو صادر عن مملكة الجنوب .

ومن نهاية القرن التاسع وحتى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد تكون وذاع النفوذ النبوى

---

(١) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله بها يهوه .

(٢) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله بها أليهم .

(٣) صدرت عن كهنة معبد القدس .

مع إليا واليشع وكتابهما فى حوزتنا . وتلك أيضاً فترة النص الأهيمى للتوراة الذى يعالج فترة زمنية محددة بالنسبة إلى النص اليهوى : فهذا النص يكتفى برواية الأحداث الخاصة بإبراهيم ويعقوب ويوسف . ويرجع سفرا يشوع والقضاة إلى تلك الفترة .

أما القرن الثامن قبل الميلاد فهو عصر الأنبياء عاموس وهوشع فى إسرائيل وأشعيا وميخا فى مملكة الجنوب .

وبالاستيلاء على سامرة فى ٧٢١ قبل الميلاد انتهت مملكة إسرائيل . واستقبلت مملكة الجنوب ميراثها الدينى . ويحتمل أن مجموعة الأمثال تنتمى إلى ذلك العصر ، الذى يتسم على وجه خاص باتحاد نصى التوراة اليهوى والأهيمى فى مجلد واحد ، وبهذا تشكل ما يعرف بالتوراة . كما يحتمل أن يرجع تاريخ تحرير سفر التثنية إلى هذا العصر أيضاً .

ويلتقى حكم يشوع ، فى النصف الثانى من القرن السابع قبل الميلاد ، مع بدايات النبى أرميا . ولكن مؤلف هذا الأخير لم يتخذ شكله النهائى إلا بعد ذلك العصر بقرن .

أما رسائل صفنيا وناحوم وحبقوق فيرجع تاريخها إلى ما قبل النفى الأول إلى بابل عام ٥٩٨ قبل الميلاد . وكان حزقيال يمارس النبوة فى أثناء هذا النفى . ثم سقطت القدس فى ٥٨٧ ق. م. هذا الحديث يسبق بداية النفى الثانى الذى امتد حتى ٥٣٨ ق. م. .

أما كتاب حزقيال ، وهو آخر نبى كبير ونبى المنفى أيضاً ، فإنه لم يدون فى شكله الحالى إلا بعد موته ، وقد دونه الكتبة وهم الذين أصبحوا ورثته الروحيين . وقد قام نفس هؤلاء الكتبة بتدوين رواية ثالثة لسفر التكوين واسمها الروايةالكهنوتية وهى الرواية التى أوردت الجزء الخاص بالخلق والذى يمتد حتى موت يعقوب .

وهكذا إذن أدخل نص ثالث على النصين اليهوى والأهيمى فى التوراة . وسنرى فيما بعد مظهراً من مظاهر تشابك هذا النص مع الكتب التى دونت تقريباً قبل ذلك بأربعة قرون وبقرنين . فى هذا العصر أيضاً ظهر سفر المراثى .

وانتهى النفى إلى بابل بأمر سيروس فى ٥٣٨ ق. م. فعاد اليهود إلى فلسطين وأعيد بناء معبد القدس . واستؤنف النشاط النبوى ، ومن هنا كانت كتب حجاى وزكريا وأشعيا الثالث وملاخى ودانيال وباروك (وقد كتب هذا الأخير باليونانية) .

والفترة التى تلى النفى هى أيضاً فترة كتب الحكمة : حررت الأمثال نهائياً فى ٤٨٠ ق . م وحـرر سفر أيوب فى القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً ، كما يرجع تاريخ سفر الجامعة Ecclesiaste ou Qohelet إلى الـقـرن الثالث ق . م . وذلك أيضاً هو عصر نشيد الإنشاد وكتابى أخبار الأيام وكتب عزرا ونحميا . أما كتاب « بن سيراخ » Ecclésiastique ou Siracide فـقـد ظـهـر فى الـقـرن الثانى قبل الميلاد ، وأما سفر الحكمة لسليمان وسفرا المكابيين فقد كتبوا قبل المسيح بقرن . وأسفار راعوث وأستيرويونس فيصعب تاريخها مثل سفرى طوبيا ويهوديت . وكل هذه المعلومات معطاة تحت تحفظات التعديلات اللاحقة ، لأن كتب العهد القديم لم تتخذ هيئتها الأولى إلا قبل قرون من ميلاد المسيح ولم تكتسب شكلها النهائى إلا فى القرن الأول بعد المسيح كما يرى الكثيرون .

وعلى ذلك يبدو العهد القديم صرحاً أدبيا للشعب اليهودى منذ أصوله وحتى العصر المسيحى . ولقد دونت وأكملت وروجعت الأسفار التى يتكون منها فيما بين القرن العاشر والقرن الأول قبل الميلاد . وليس هذا مطلقاً وجهة نظر شخصية نعطيها عن تاريخ تحرير هذه الأسفار . فالمعطيات الجوهرية لهذه اللمحة التاريخية مستقاة من مقال « التوراة » Bible بدائرة معارف أونيفرساليس للكاتب[1] ج. ب. سانـدروز J.P.Sandroz الأستـاذ بكليات الدومنيكان بسولشوار Saulchoir ولكى نفهم ما العهد القديم يجب أن تكون هذه المعلومات حاضرة فى أذهاننا ، وهى معلومات أثبتها متخصصون على درجة عالية من الكفاءة .

إن الوحى يختلط بكل هذه الكتابات ، ولكننا لا نملك اليوم إلا النصوص التى خلفها لنا الكتاب الذين عالجوا النصوص على سجيتهم وحسب الظروف التى عاشوها والضرورات التى كان عليهم مواجهتها .

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية بتلك التى تكشف عنها مقدمات الكتب المقدسة المخصصة للعامة ، ندرك أن هذه المقدمات تسوق الأمور بشكل مختلف . فهى تسكت على الأمور الأساسية الخاصة بتدوين الكتب ، كما أنها تحتفظ بغموض يضل

---

(١) Encyclopedia Universalis طبعة ١٩٧٤ ، الجزء الثالث ، الصفحات من ٢٤٦ إلى ٢٥٣ .

القارئ ، وتقلل من شأن أمور أخرى إلى درجة أنها تعطى فكرة خاطئة عن الواقع الذى حدث فعلاً . وهكذا تشوه مقدمات كثير من الكتب المقدسة على الحقيقة . بل إذا كانت هناك كتب قد أصابها التعديل برمتها وعدة مرات (مثلما حدث لأسفار موسى الخمسة) ، يكتفى كتاب هذه المقدمات بالإشارة إلى أن تفاصيل أضيفت بعد تحرير النص . بعضهم يزج بمناقشات تخص فقرة عديمة الأهمية فى هذا السفر أو ذاك ويسكتون على أمور حيوية جداً تستحق دراسات طويلة . وإنه لما يؤسف له حقًا أن يحتفظ لعامة القراء بمعلومات عن التوراة يسمها الخطأ إلى هذا الحد .

التوراة أو أسفار موسى الخمسة PENTATEUQUE

التوراة هو الاسم السامى .

أما التعبير اليونانى الذى أعطى كلمة Pentateuque الفرنسية فهى تعنى مؤلفاً يتكون من خمسة أجزاء هى : التكوين والخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية وهى الأسفار التى كونت العناصر الخمسة الأولى لكتاب العهد القديم من تسعة وثلاثين مجلداً .

وتتناول هذه المجموعة من النصوص أصل الكون وحتى دخول الشعب اليهودى أرض كنعان ، الأرض الموعودة بعد الخروج من مصر ، وبالتحديد حتى موت موسى . وتستخدم حكاية هذه الأحداث كإطار لعرض التدابير الخاصة بالحياة الدينية والحياة الاجتماعية للشعب اليهودى ، ومن هنا جاء اسم التوراة أى الناموس .

وظلت اليهودية والمسيحية ، لقرون طويلة ، تعتبران أن موسى نفسه هو كاتب التوراة . وربما كان من دفع بتلك الدعوى قد اعتمد على واقع أن الرب قد قال لموسى (الخروج – الإصحاح ١٧ الآية ١٤) : « اكتب هذا تذكاراً فى الكتاب » ، والمقصود بهذا هزيمة عماليق – أو ربما قد اعتمد أيضاً على الآية الثانية من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد : « وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب » . أو قد اعتمد على الآية التاسعة من الإصحاح الحادى والثلاثين من سفر التثنية « وكتب موسى هذه التوراة » .

وابتداء من القرن الأول قبل الميلاد كان هناك دفاع عن الرأى القائل بأن موسى قد كتب الأسفار الخمسة كلها . دافع عن هذا الرأى كل من فلافيوس جوزيف Flavius Joséphe وفليون الإسكندرى Philon .

أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تماماً . والكل يتفق على تلك النقطة ، ولكن هذا لا يمنع أن العهد الجديد ينسب إلى موسى هذه الكتب . الواقع أن بولس يقول فى رسالته إلى أهل رومية (الإصحاح العاشر – الآية ٥) : « لأن موسى يكتب فى البر[1] الذى يصدر من الناموس .. » وهو بهذا يذكر عبارة من سفر اللاويين . أما يوحنا فإنه يجعل المسيح يقول تلك العبارة : « لأنكم لو كنتم ترون موسى لكنتم تصدقوننى لأنه هو كتب عنى . فإن كنتم لستم تصدقون ما كتب فكيف تصدقون كلامى » . (إنجيل يوحنا . الإصحاح الخامس : ٤٦ – ٤٧) . المقصود هنا ، كما هو واضح ، هو فعل الكتابة والكلمة اليونانية التى نجدها فى النص الأصلى (المكتوب باليونانية) هى Episteute وهذا تأكيد مغلوط تماماً يضعه يوحنا على لسان المسيح : وما يلى يبرهن على ذلك .

وإنى أستعير عناصر هذه البرهنة من الأب ديفو R.P. de Vaux مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس . وقد قدم الأب ديفو لترجمته لسفر التكوين عام ١٩٦٢ بمقدمة عامة لأسفار موسى الخمسة . وهى مقدمة تحتوى على حجج قيمة تناقض الدعاوى الإنجيلية الخاصة بأبوة المؤلف المعنى به .

يذكر الأب ديفو أن « التراث اليهودى الذى امتثل له عيسى والرسل » كان مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى . وكان الرافض الوحيد لهذه الدعوى أبين اسرا Aben Esra فى القرن الثانى عشر . وفى القرن السادس عشر أشار كارلتشاد Carlstadt إلى استحالة أن يكون موسى قد كتب بنفسه كيف مات (سفر التثنية الإصحاح ٣٤ الآيات من ٥ إلى ١٢) . ويذكر المؤلف بعد ذلك نقاداً آخرين يرفضون أبوة موسى على الأقل لجزء من الأسفار الخمسة ، ويذكر على وجه الخصوص دراسة ريشار سيمون Richard Simon, de l'Oratoire التاريخ النقدى للعهد القديم Histoire Critique du Vieux Testament

(١) المقصود هنا العدل .

(١٦٧٨) ، وفيها يـــؤكد ر. سيمون على الصعوبـات الخاصة بتسلسل الأحـداث والتكرارات وفوضى الروايات وفوارق الأسلوب فى أسفار موسى الخمسة . لقد أثار الكتاب ضجة وسخطاً ، ولم يتابع أحد حجة ر. سيمون تقريباً ؛ وهى أن مراجع العصور القديمة فى كتب التاريخ فى بداية القرن الثامن عشر كثيراً ما تستعين « بما كتب موسى » .

يستطيع المرء إذن أن يتصور إلى أى حد كان من الصعب تدحيض خرافة تمتعت بالتأييد الذى أتى به المسيح نفسه فى العهد الجديد ، كما رأينا . ونحن ندين لجان استروك Jean Astruc طبيب لويس الخامس عشر ، بالبرهان الحاسم الذى قدمه فى هذا الموضوع .

فقد نشر جان استروك فى ١٧٥٣ دراسة بعنوان « قرائن عن المذكرات الأصلية التى يبدو أن موسى قد استخدمها لتحرير سفر التكوين Conjonctures sur les Memoires originaux dont il parait que Moise s'est servi pour composer le livre de la Genèse." يؤكد فيها على تعدد المصادر . ولم يكن أول من أشار إلى هذا ، على أى حال كانت لديه شجاعةأن ينشر على الملأ ملاحظة أساسية هى : وجود نصين جنبا إلى جنب فى سفر التكوين يحتوى كل منهما على خاصية مختلفة فى تسمية الرب : إذ يسميه أحدهما يهوه ويسميه الثانى بألوهيم . إذن فسفر التكوين يحتوى على نصين جنباً إلى جنب . ثم قام إيخهورن Eichhorn (١٧٨٠ – ١٧٨٣) بنفس الاكتشاف بالنسبة للكتب الأربعة الأخرى . ثم جاء إيلجن Ilgen (١٧٩٨) ولاحظ أن أحد النصين اللذين ميزهما استروك ، وهو النص الذى يسمى فيه الرب بألوهيم ، ينقسم هو أيضاً إلى قسمين . وبهذا تفتت تماماً كتاب أسفار موسى الخمسة .

أما بحاثة القرن التاسع عشر فقد كرسوا جهدهم فى بحث عن المصادر أكثر دقة . وفى ١٨٥٤ كانت هناك أربعة مصادر مقبولة وتسمى بالأسماء التالية : الوثيقة اليهوية والوثيقة الألوهيمية ، وسفر التثنية ، والنص الكهنوتى . وقد أفلح الباحثون فى إعطائها أعماراً :

١ – تقع الوثيقة اليهوية فى القرن التاسع قبل الميلاد (وقد حررت فى مملكة الجنوب) .

٢ – أما الوثيقة الألوهيمية فهى أقرب تاريخيًا بقليل (وقد حررت بإسرائيل) .

٣ – وأما سفر التثنية فينتمى إلى القرن الثامن قبل الميلاد فى رأى أدموند جاكوب . وهناك بحاثة آخرون ، مثل الأب ديفو ، يرون أنه ينتمى إلى عصر جوزياس (أى القرن السابع قبل الميلاد) .

٤ – وأما النص الكهنوتى فينتمى إلى عصر النفى أو ما بعد النفى ، أى القرن السادس قبل الميلاد .

بهذا إذن يمتد تحرير نص أسفار موسى الخمسة على ثلاثة قرون بأقل تقدير .

ولكن المشكلة أكثر تعقداً من هذا . ففى ١٩٤١ استطاع ا. لودز A. Lods أن يميز فى الوثيقة اليهوية ثلاثة مصادر وفى الوثيقة الإلهيمية أربعة ، وفى سفر التثنية ستة وفى النص الكهنوتى تسعة ، وهذا « دون حساب الإضافات الموزعة بين ثمانية محررين » . كما يقول الأب ديفو ومنذ فترة أكثر قرباً وصل التفكير إلى « أن كثيراً من نواميس أو قوانين أسفار موسى الخمسة كان لها ما يوازيها خارج التوراة وفى فترة تسبق بكثير التاريخ المنسوب إلى هذه الوثائق » وإن « عدداً من روايات أسفار موسى الخمسة يفترض وجود مصدر آخر أكثر قدماً من ذلك الذى يفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه » . وذلك يدفع إلى الاهتمام بمشكلة « تشكل التراث » . إن المشكلة تبدو عندئذ على درجة من التعقد بحيث إن الأمر يختلط على الكل .

ويجر تعدد المصادر تنافرات وتكرارات عديدة فى هذه النصوص . ويعطى الأب ديفو أمثلة على تعقد هذه الأقوال الموروثة الخاصة بالخلق وأنسال قابيل والطوفان واختطاف يوسف وما جرى له بمصر والاختلافات الخاصة بأسماء شخص واحد والتصويرات المختلفة للأحداث الهامة .

وبهذا يتضح تكون كتاب أسفار موسى الخمسة من أقوال موروثة مختلفة جمعها ، بشكل يقل أو يزيد حذقاً ، محررون وضعوا تارة ما جمعوا جنباً إلى جنب وطوراً غيروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة ، تاركين للعين أموراً غير معقولة وأخرى متنافرة كان من شأنها أن قادت المحدثين إلى البحث الموضوعى عن المصادر .

ويعطى كتاب أسفار موسى الخمسة ، على مستوى نقد النصوص ، أكثر الأمثلة وضوحاً عن التعديلات التى قام بها بشر فى فترات مختلفة من تاريخ الشعب اليهودى ، كما يعطى أمثلة جلية عن تعديلات التراث الشفهى والنصوص التى تلقتها الأجيال السابقة .

كان كتاب أسفار موسى الخمسة قد بدا ، فى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد ، مع التراث اليَهْوِىّ الذى يتناول الرواية ابتداء من أصل العالم . وهو لا يفعل أكثر من وضع الخطوط العريضة لمصير إسرائيل الخاص ، كما يقول الأب ديفو ، وذلك حتى « يضع هذا المصير فى إطار إرادة الله الخاصة بالإنسانية » . والكتاب ينتهى فى القرن السادس قبل الميلاد بالنص الكهنوتى الذى ينصب اهتمامه على الإشارة إلى التواريخ والأنساب [١] .

« يقول الأب ديفو : « إن ما تتميز به هذه الأقوال الموروثة من روايات نادرة يشهد باهتماماتها التشريعية : ومن ذلك الراحة يوم السبت عند نهاية الخلق ، والارتباط بنوح والارتباط بإبراهيم والطهور وشراء مغارة مكبلا التى أعطت للآباء الأولين سنداً ملكيًّا بأرض كنعان » . ولنذكر أن النص الكهنوتى يقع تاريخيًّا عند العودة من النفى ببابل وعند الاستقرار مرة ثانية بفلسطين ابتداء من ٥٣٨ ق . م . هناك إذن تداخل معقد بين المشاكل الدينية وبين المشاكل السياسية الصرف .

فيما يخص سفر التكوين وحده فإن انقسام الكتاب إلى ثلاثة مصادر ثابت فعلاً : ويحدد الأب ديفو فى تعليقات على ترجمته فقرات نص سفر التكوين الحالى التى تخضع لكل مصدر من هذه المصادر . وإذا اعتمدنا على هذه المعطيات نستطيع أن نحدد بالنسبة لكل فصل ما يأتى به كل مصدر . على سبيل المثال ، فيما يخص الخلق والطوفان والفترة التى تمتد من الطوفان وحتى إبراهيم ، وهى العصور التى تحتل الأحد عشر فصلاً الأولى من سفر التكوين ، نرى فى رواية التوراة جزءاً من النص اليهوى يتبعه جزء من النص الكهنوتى ، وليس النص الألهيمى حاضراً فى هذه الفصول الإحدى عشرة الأولى . ويظهر بجلاء تام هنا

---

(١) سنرى فى الفصل التالى أخطاء الرواية التى ظهرت بعد المقابلة مع المعطيات الحديثة للعلم والتى انقاد لها محررو النص الكهنوتى وذلك بالنسبة لقدم الإنسان على الأرض وبالنسبة لتاريخ أحداث الخلق ومجراها . كما سيتضح أن الأخطاء ناجمة بشكل واضح عن تعديل البشر بالنصوص .

تداخل وتعقد الإسهامات اليهوية والكهنوتية . أما فيما يتعلق بالخلق وحتى نوح (أى الفصول الأولى) فانتظامها بسيط : فقرة يهوية تعقب فقرة كهنوتية وهكذا من البداية وحتى نهاية الرواية . أما فيما يتعلق بالطوفان وخاصة الفصلين السابع والثامن فإن تقسيم النص حسب مصادره يعزل فقرات قصيرة جدًّا قد تصل إلى جملة واحدة . ففى أكثر قليلاً من مائة سطر من النص الفرنسى ننتقل سبع عشرة مرة من مصدر لآخر : ومن هنا كانت تلك المتناقضات والأمور غير المعقولة التى تدرك عند قراءة هذا النص اليوم .

ويبسط الجدول التالى تقسيم المصادر هذا .

تفصيل توزيع النص اليهوى والنص الكهنوتى فى الإصحاحات من ١ إلى ١١ من سفر التكوين .

يشير الرقم الأول إلى الإصحاح .

يشير الرقم الثانى الموضوع بين قوسين إلى رقم الآيات ، وتنقسم هذه أحياناً إلى جزء ين يشار إليهما بالحرفين ا و ب .

يشير حرف الياء إلى النص اليهوى .

ويشير حرف الكاف إلى النص الكهنوتى .

مثال : يعنى السطر الأول من الجدول ما يلى :

ما يمتد من الإصحاح الأول ، الآية الأولى إلى الإصحاح الثانى الآية ٤ أ من النص الحالى المنشور فى الكتب المقدسة هو النص الكهنوتى .

من الإصحاح	الآية	إلى الإصحاح	الآية	المصدر
١	(١)	٢	(٤ أ)	ك
٢	(٤ ب)	٤	(٢٦)	ى
٥	(١)	٥	(٣٢)	ك
٦	(١)	٦	(٨)	ى
٦	(٩)	٦	(٢٢)	ك
٧	(١)	٧	(٥)	ى
٧	(٦)			ك
٧	(٧)	٧	(١٠)	ى (معدل)
٧	(١١)			ك
٧	(١٢)			ى
٧	(١٣)	٧	(١٦ أ)	ك
٧	(١٦ ب)	٧	(١٧)	ى
٧	(١٨)	٧	(٢١)	ك
٧	(٢٢)	٧	(٢٣)	ى
٧	(٢٤)	٨	(٢ أ)	ك
٨	(٢ ب)			ى
٨	(٣)	٨	(٥)	ك
٨	(٦)	٨	(١٢)	ى
٨	(١٣ أ)			ك
٨	(١٣ ب)			ى
٨	(١٤)	٨	(١٩)	ك
٨	(٢٠)	٨	(٢٢)	ى

obeikandl.com

من الإصحاح	الآية	إلى الإصحاح	الآية	المصدر .
٩	(١)	٩	(١٧)	ك
٩	(١٨)	٩	(٢٧)	ى
٩	(٢٨)	١٠	(٧)	ك
١٠	(٨)	١٠	(١٩)	ى
١٠	(٢٠)	١٠	(٢٣)	ك
١٠	(٢٤)	١٠	(٣٠)	ى
١٠	(٣١)	١٠	(٣٢)	ك
١١	(١)	١١	(٩)	ى
١١	(١٠)	١١	(٣٢)	ك

أى تصوير أوضح من هذا يمكن أن نعطيه لتعديل الناس إلى كتب التوراة . . ؟

الكتب التاريخية

تتناول الكتب التاريخية تاريخ الشعب اليهودى منذ دخوله إلى أرض الميعاد (ويحدد على أحسن تقدير معقول بنهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد) حتى النفى إلى بابل فى القرن السادس قبل الميلاد .

وتؤكد نبرة هذه الكتب على ما يمكن تسميته « بالواقع القومى » ، وتقدمه الكتب باعتباره تنفيذاً لكلام الله . والرواية لا تحفل بالدقة التاريخية . فسفر يشوع ، على سبيل المثال ، يخضع قبل كل شىء لدوافع دينية ويشير الأستاذ ا . جاكوب بهذه المناسبة إلى التناقض الصريح بين علم الآثار والنصوص فيما يتعلق بما يدعى بتدمير مدينتى جيريكو Jéricho وأى Ay .

إن محور سفر القضاة هو الدفاع عن الشعب المختار ضد الذين كانوا يحيقون به وإغاثة الرب له . ولقد تعدل الكتاب مرات عدة ، وذلك ما يشير إليه بموضوعية كبيرة الأب

ا. لوفيفر A.Lefevre فى تمهيده لتوراة كرامبون Crampon وتشهد بذلك المقدمات والحواشى المتداخلة. إن حكاية راعوث ترتبط بهذه الروايات فى سفر القضاة.

أما كتاب صمويل وكتب الملوك فهى أساساً مجموعات من السير تخص صمويل وطالوت وسـليمان. وقيمتها التاريخية مشكوك فيها. ومن وجهة النظر هذه يجد أ. جاكوب فى هذه الكتب أخطاء متعددة، فالحدث الواحد له روايات مزدوجة وحتى ثلاثية. ويجد الأنبياء إلّيا واليشع وأشعيا مكانهم فى هذه الروايات، وبهذا تختلط الخطوط التاريخية بالأساطير. ولكن هناك معلقين مثل الأب أ. لوفيفر R.P.A. Lefèvre، يـرون «أن القيمة التاريخية لهذه الكتب أساسية».

إن الإصحاحين الأول والثانى من أخبار الأيام وكتب عزرا ونحميا تنتمى إلى كاتب واحد اسمه القصاص الذى عاش فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. وهو يتناول من جديد التاريخ برمته منذ الخلق وحتى ذلك العصر، بالرغم أن الأنساب عنده تتوقف عند داود. الواقع أنه يستخدم فوق كل شىء كتاب صمويل وكتاب الملوك «بل هو ينسخها آليًّا دون أن يهتم بالمتناقضات الناجمة عن هذا النسخ» (أ. جاكوب). غير أنه يضيف أيضاً أموراً معينة يؤكد علم الآثار صحتها. فى هذه المؤلفات إذن اهتمام بتكييف التاريخ مع الضرورات اللاهوتية. وكما يقول ا. جاكوب فإن الكاتب هنا يكتب التاريخ منطلقاً من اللاهوت. وعلى هذا، ولكى يشرح الكاتب أن ملك الملك منسى، الذى اضطهد ودنس القدسيات، قد دام طويلاً وازدهر، فإنه يفترض أن هذا الملك آمن فى رحلة له بآشور (أخبار الأيام الإصحاح الثانى، ٣٣ / ١١). وليس لهذا الأمر أى مصدر فى أى كتاب من كتب التوراة أو خارجها». لقد انتقضت كتابى عزرا ونحميا بشدة لأنهما يمتلئان بالإبهام ولأنهما يتعلقان بعصر هو نفسه غير معروف وذلك لعدم وجود وثائق خارج الكتب المقدسة. والمعنى به هو عصر القرن الرابع قبل الميلاد.

وتصنف كتب طوبيا وجوديت وإستيريين الكتب التاريخية، وفيها تجاسر وتصرف شديدان إزاء التاريخ: ففيها تغيير لأسماء الأعلام واختراع لشخصيات وأحداث وكل هذا بنية دينية طيبة. الواقع أن هذه الكتب تحتوى على حكايات أخلاقية النزعة محشوة

بالأخطاء التاريخية وبأمور مستبعدة تاريخيًا .

أما كتابا المكابيين فيختلفان تماماً ، إذ يعطيان أحداث القرن الثانى قبل الميلاد رواية صحيحة بأكبر قدر ممكن عن تاريخ ذلك العصر وهى بهذا تشكل شهادات قيمة .

إذن ، فمجموع الكتب المسماة بالتاريخية شديد التباين . والتاريخ فيها معالج بشكل علمى بمثل ما هو معالج بشكل وهمى .

الكتب النبوية

يجمع تحت هذا الاسم وصايا مختلف الأنبياء الذين يحتوى العهد القديم عليهم باستثناء كبار الأنبياء المشار إلى تعاليمهم فى كتب أخرى مثل موسى وصمويل وإليا واليشع .

وتغطى الكتب النبوية الفترة بين القرن الثامن والقرن الثانى قبل الميلاد .

أما كتب القرن الثامن قبل الميلاد فهى كتب عاموس وهوشع وأشعيا وميخا . ويشتهر الأول بإدانته للمظالم الاجتماعية والثانى بإدانته للفساد الدينى ، ذلك الذى تسبب فى تعذيبه جسديًا (بعد أن تزوج من عاهرة مقدسة فى عبادة وثنية) ، كصورة الله الذى يتألم بسبب انحلال شعبه وإن أعطاه حبه دائماً . أما أشعيا فهو وجه للتاريخ السياسى : إنه يسود الأحداث لأن الملوك يستشيرونه ، إنه نبى العظمة . وإلى مؤلفاته تضاف نبوءاته التى نشرها تلامذته حتى القرن الثالث قبل الميلاد : ومنها الاحتجاجات ضد الظلم والخوف من يوم القيامة والتبشير بالتحرر فى عصر النفى والتنبؤ فى فترة لاحقة بعودة اليهود إلى فلسطين . ومن المؤكد أن نبوءتى أشعيا الثانية والثالثة تحتويان أيضاً ، إلى جانب الاهتمام النبوى ، على اهتمام سياسى يظهر واضحاً . وتتبع رسالة ميخا ، وهو معاصر لأشعيا ، من نفس عامة هذه الأفكار .

وفى القرن السابع قبل الميلاد يبرز صفنيا وأرميا وناحوم وحبقوق فى التبشير . وينتهى أرميا بالاستشهاد . وتلقى باروك نبوءاته . وربما كان أرميا كاتب المراثى .

لقد أعطى النفى إلى بابل فى بداية القرن السادس ق . م . نشاطاً نبويا كبيراً . ويعد النبى حزقيال بارزاً فى هذا النشاط باعتباره مواسياً لإخوته الذين بذر الأمل بينهم . ورؤاه مشهورة . ويرتبط كتاب عوبيديا بكوارث القدس المقهورة .

وبعد النفى الذى انتهى فى عام ٥٣٨ ق. م. استأنف النشاط النبوى مع حجاى وزكريا للحث على إعادة بناء المعبد. إن ما كتب باسم ملاخى ، وبعد الانتهاء من بناء المعبد ، نبوءات متنوعة ذات طبيعة روحانية .

ما سبب إدراج كتاب يونس بين كتب الأنبياء حيث إن العهد القديم لا ينسب إليه نصوصاً بالمعنى الحقيقى للكلمة ...؟ إن كتاب يونس حكاية يستخلص منها أمر رئيسى هو الخضوع الضرورى للإرادة الإلهية .

وأما رؤيا دانيال فهى « مذهلة » من وجهة النظر التاريخية كما يقول المعلقون المسيحيون ، وهى مكتوبة بثلاث لغات (العبرية والآرامية واليونانية) . ويقول البعض إنها مؤلف يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد فى عصر المكابيين . ويحتمل أن يكون كاتب هذه الرؤيا قد أراد إقناع مواطنيه فى عصر « منتهى الشر » بأن ميعاد الخلاص قريب وذلك حتى يغذى إيمانهم (ا . جاكوب) .

كتب الشعر والحكمة

وتكون كتب الشعر والحكمة مجموعات تتمتع بوحدة أدبية لا جدال فيها . وتحتل المزامير المقام الأول بين هذه المجموعات . إنها الصرح الشامخ فى الشعر العبرى . وقد كتب داود عدداً كبيراً منها وكتب الباقى الكهنة واللاويون . وموضوعها المدائح والتضرعات والتأملات . كانت وظيفة المزامير طقوسية الطابع .

أما كتاب أيوب ، كتاب الحكمة والبر ، بكل معنى الكلمة ، فيرجع فيما يقال إلى ٤٠٠ أو ٥٠٠ ق. م.

وأما المراثى على سقوط القدس ، فى بداية القرن السادس قبل الميلاد ، فربما كان كاتبها هو أرميا .

ولنذكر أيضاً نشيد الإنشاد : هى أناشيد رمزية تنصب على الحب الإلهى فوق كل شىء ، وسفر الأمثال ويتكون من مجموعة من أقوال سليمان وحكماء أخر فى بلاطه وسفر الجامعة ويتحدث عن السعادة الدنيوية والحكمة .

والسؤال الآن هو كيف استطاع هذا المجموع المتنافر بمضمونه الذى يتكون من أسفار كتبت على مدى سبعة قرون على الأقل وأتت من مصادر شديدة التنوع ثم تجمعت بعد ذلك داخل مؤلف واحد ، كيف استطاع عبر القرون أن يكون كلا لا ينفصم وأن يصبح – مع بعض الاختلافات بين الجماعات الدينية – كتاب الوحى اليهودى – المسيحى ، كيف أصبح « القانون » Canon وهى كلمة يونانية يرتبط بها معنى عدم المساس ..؟

إن التجميع لا يرجع إلى عصر المسيحية بل إلى اليهودية نفسها . ولا شك أن مرحلته الأولى تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد ، حيث إن الكتب اللاحقة قد أتت بعد ذلك لتضاف إلى ما احتفظ به من قبل . ومع ذلك يجب أن نلاحظ المكانة الخاصة التى أعطيت فى كل العصور الأسفار الخمسة الأولى التى تكون التوراة أو ما يعرف بأسفار موسى الخمسة Pentateuque . فإن تحقق نذائر الأنبياء (هى وعد بالعقاب يرتبط وظيفيا بالخطايا) ، كان من شأنه أن سهل إضافة كتبهم إلى الكتب المقبولة سلفاً ، إن « قانون » Canon الأنبياء كان قد تشكل فعلاً قبل القرن الثانى قبل الميلاد .

أما الكتب الأخرى مثل المزامير ، وبسبب وظيفتها فى الطقوس الدينية ، فقد أدمجت مع الكتابات الأخرى وكتابات سليمان أو أيوب الحكيمة .

إن المسيحية التى كانت أولا يهودية – مسيحية والتى درسها جيداً (كما سنرى ذلك) كتاب محدثون ، مثل الكردينال دانيلو Daniélou . قد تلقت بشكل طبيعى جدًّا ميراث العهد القديم الذى ارتبطت به وثيقاً كتاب الأناجيل ، وذلك قبل أن يجرى عليها التحول الذى حدث بتأثير بولس . ولكن إذا كان « تطهير » الأناجيل قد تم باستبعاد الأناجيل المزورة ، فإن المسئولين لم يروا ضرورة القيام بنفس الفرز بالنسبة إلى العهد القديم ، وقبلوا ما يحتويه كلية تقريباً .

هل هناك من جرؤ على الاعتراض على هذا المجموع المتنافر حتى القرون الوسطى وفى الغرب على الأقل ..؟ لا أحد أو تقريباً لا أحد . ومن القرون الوسطى وحتى بداية العصور الحديثة ظهرت بعض الانتقادات ، كما رأينا أعلاه ، ولكن الكنائس نجحت دائماً فى فرض سلطتها . ولا شك أن عصرنا قد شهد ميلاد نقد أصيل للنصوص . ولكن إذا كان

المتخصصون الكنسيون فى نقد النصوص قد كرسوا قرائحهم لدراسة حشد كبير من النقاط التفصيلية ، فإنهم قد حكموا بأفضلية عدم الذهاب إلى أبعد مما يسمونه تلميحاً « صعوبات » . ولا يبدو أن بهم ميلا لدراسة هذه الصعوبات على ضوء المعارف الحديثة . وإذا كان هناك من لا يعترض على إقامة موازنات تاريخية ، وخاصة عندما يكون هناك توافق بين المعارف الحديثة وروايات الكتب المقدسة ، فلا أحد حتى الآن من هؤلاء المتخصصين قد حط الخطى على طريق مقارنة صريحة وعميقة مع المعلومات العلمية التى ندرك أنها ستقود إلى الاعتراض على فكرة صحة الكتابات اليهودية – المسيحية التى لا يجادلها أحد منهم حتى يومنا هذا .

obeikandl.com

العهد القديم والعلم الحديث
ملاحظات

قليل من الموضوعات التى يعالجها العهد القديم – كالأناجيل – تسمح بالمقابلة مع معطيات العلوم الحديثة . ولكن عندما يحدث تعارض بين نص التوراة والعلم فإنه يجىء فى مسائل نستطيع أن نصفها بالمهمة .

ولقد رأينا فى الفصل السابق أن التوراة تحتوى على أخطاء ذات طابع تاريخى وذكرنا بعض هذه الأخطاء مما اكتشفه عدة مفسرين يهود ومسيحيين . وينزع المفسرون المسيحيون بشكل طبيعى إلى التقليل من أهمية هذه الأخطاء . يرون أنه طبيعى تماماً أن يقدم الكاتب الدينى أموراً تاريخية بحسب وجهة النظر الدينية : هم يكتبون التاريخ إذن حسب مقتضيات الحال . وسنرى فيما بعد بالنسبة إلى إنجيل متى نفس هذه التصرفات إزاء الواقع ونفس التعليقات التى تهدف إلى فرض ما يناقض الحقيقة كحقيقة . إن الروح الموضوعى والمنطق لا يمكن أن يرضى بهذه الطريقة فى العمل .

من زاوية المنطق يمكن أن نتبين عدداً كبيراً من المتناقضات والأمور غير المعقولة فى التوراة . يمكن أن تكون المصادر المختلفة التى استخدمت فى تأليف النص هى أصل رواية حدث واحد بشكلين مختلفين ، ولكن هناك أكثر من ذلك : إن التعديلات المختلفة والإضافات اللاحقة إلى النص نفسه كالتعليقات التى أضيفت استدلاليا ثم دخلت فيما بعد على النص عند نسخه مرة أخرى ، كل هذا يعرفه المتخصصون فى نقد النصوص ، ويشير البعض إليه بمنتهى الأمانة . وعلى سبيل المثال قدم الأب ديفو ، بالنسبة لأسفار موسى الخمسة وحدها ، فى المقدمة العامة التى تسبق ترجمته لسفر التكوين (ص ١٣ و ١٤) ، قدم تفصيلاً بكثير من النقاط المتنافرة التى لا يبدو لنا – مهما أعدت ذكرها هنا حيث سنذكر الكثير منها فى هذه الدراسة – أن الفكرة العامة التى نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء هو أنه لا يجب أن نأخذ النص مأخذاً حرفيًّا .

وإليكم مثالاً معبراً عن هذا :

فى سفر التكوين (الإصحاح ٦ الآية ٣) يقرر الله ، قبل الطوفان بقليل ، أن يحد عمر الإنسان بمائة وعشرين سنة . تقول التوراة : « . . وتكون أيامه مائة وعشرين سنة » . ومع ذلك يلاحظ فيما بعد فى نفس سفر التكوين (الإصحاح ١١ الآيات من ١٠ إلى ٣٢) أن حياة أنسال نوح العشرة قد دامت من ١٤٨ إلى ٦٠٠ سنة (انظر فى هذا الفصل الجدول الذى يمثل أنسال نوح حتى إبراهيم) . إن التناقض بين هاتين العبارتين واضح ، وتعليله بسيط . فالعبارة الأولى (التكوين . إصحاح ٦ الآية ٣) نص يهوى يعود تاريخه ، كما رأينا أعلاه ، إلى القرن العاشر قبل الميلاد . أما العبارة الثانية فى سفر التكوين (الإصحاح ١١ – الآيات من ١٠ إلى ٣٢) فهى من نص قريب تاريخيًّا (القرن السادس قبل الميلاد) فى التراث الكهنوتى الذى هو أصل هذه الأنساب التى تبدو شديدة الدقة فى إحصاء الأعمار بنفس القدر الذى تبدو به غير معقولة إذا أخذناها كتلة واحدة .

فى سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحاً مع العلم الحديث . وتخص هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهرية :

١ – خلق العالم ومراحله .

٢ – تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض .

٣ – رواية الطوفان .

خلق العالم

يلاحظ الأب ديفو أن سفر التكوين « يبدأ بروايتين عن الخلق كل منهما موضوعة إلى جانب الأخرى » . ومن وجهة نظر دراسة اتفاق هذين النصين مع المعطيات العلمية ، فلابد من دراسة كل منهما مُنْفَصِلاً عن الآخر .

الرواية الأولى عن الخلق

وتحتل الرواية الأولى الإصحاح الأول والآيات الأولى من الإصحاح الثانى إنها بناء يتكون من أخطاء من وجهة النظر العلمية . ولا بد من القيام بنقدها فقرة فقرة . والنص الذى نقدم هنا هو نص ترجمة فرنسية لمدرسة الكتاب المقدس بالقدس .

الإصحاح الأول – الآيتان ١ و ٢ : « فى البدء خلق الله السماء والأرض . وكانت الأرض خربة وخالية والظلمات تغطى اللجة وروح الله يرف على المياه » .

ونستطيع أن نقبل تماماً أن فى مرحلة ما قبل خلق الأرض كان ما سيصبح الكون ، كما نعرفه ، غارقاً فى الظلمات . ولكن الإشارة إلى المياه فى تلك المرحلة أمر رمزى صرف ، وربما كان ترجمة لأسطورة وسنرى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب أن هناك ما يسمح بالاعتقاد بوجود كتلة غازية فى المرحلة الأولى لتكون الكون ، إن القول بوجود الماء فى تلك المرحلة غلط .

الآيات من ٣ إلى ٥ – : « ليكن نور فكان النور . ورأى الله أن النور حسن وفصل بين النور والظلمات . ودعا الله النور نهاراً والظلمات ليلاً . وكان مساء وكان صباح : اليوم الأول » .

إن الضوء الذى يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة تحدث فى النجوم وسنعود إلى النجوم فى الجزء الثالث من هذا الكتاب . ولكن النجوم حسب قول التوراة ، لم تكن قد تشكلت بعد فى هذه المرحلة ، حيث إن « أنوار » السموات لا تذكر فى سفر التكوين إلا فى الآية ١٤ باعتبارها ما خلق الله فى اليوم الرابع « ليفصل بين النهار والليل » « ولينير الأرض » وذلك صحيح تماماً . ولكن من غير المنطقى أن تذكر النتيجة الفعلية (أى النور) فى اليوم الأول على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور ، أى « المنيرة » فى اليوم الرابع . يضاف إلى ذلك أن وضع الليل والنهار فى اليوم الأول هو أمر مجازى صرف : فالليل والنهار باعتبارهما عنصرين ليوم غير معقولين إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص بها : أى الشمس .

« الآيات من ٦ إلى ٨ — » وقال الله : « ليكن جلد فى وسط المياه وليكن فاصل بين مياه ومياه . وكان كذلك . فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد . ودعا الله الجلد سماء . وكان مساء وكان صباح : اليوم الثانى » .

أسطورة المياه هنا تستمر بانفصالها إلى طبقتين بواسطة الجلد الذى سيجعل الطبقة العليا ، عند الطوفان ، تنفذ من خلاله تمر لتنصب على الأرض . إن صورة انقسام المياه هذه إلى كتلتين غير مقبولة علميًّا .

الآيات من ٩ إلى ١٣ – وقال الله : « لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد فى كتلة واحدة ولتظهر اليابسة وكان كذلك . ودعا الله اليابسة أرضاً ومجتمع المياه دعاه « بحاراً » ورأى الله ذلك أنه حسن » .

وقال الله : « لتنبت الأرض خضرة عشباً يحمل بزراً كجنسه ، وشجراً يعطى ثمراً من جنسه وبزراً . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح : اليوم الثالث » .

ومقبول علميًّا أن القارات قد ظهرت فى مرحلة من تاريخ الأرض كانت هذه مغطاة بالماء . ولكن أن يكون هناك فى تلك الفترة عالم نباتى ينتظم جيدًا بالتناسل بالبذرة قبل ظهور الشمس (التى تظهر كما يقول سفر التكوين فى اليوم الرابع) وأن ينتظم تعاقب النهار والليل فذلك ما لا يمكن مطلقاً القول به .

الآيات من ١٤ إلى ١٩ – « وقال الله : لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون علامات للأعياد كما للأيام والسنين ولتكن أنوار فى جلد السماء لتضىء الأرض . وكان كذلك وعمل الله المنيرين العظيمين – المنير الأكبر لحكم النهار والمنير الأصغر لحكم الليل – والنجوم . وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ، ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان نهار : اليوم الرابع . »

إن وصف كاتب التوراة هنا مقبول . والنقد الوحيد الذى يمكن إقامته على هذه العبارة هو المكان الذى تحتله فى مجموع الرواية . إن الأرض والقمر ، كما نعرف ، قد نبعا من نجمها الأصلى أى الشمس . ووضع خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض يناقض

المعلومات الأساسية عن تشكل عناصر النظام الشمسى .

الآيات من ٢٠ إلى ٢٣ – « وقال الله : ولتعج المياه بعجيج الكائنات الحية ولتطر طيور فوق الأرض وعلى وجه جلد السماء . » وكان كذلك . وخلق الله كبار ثعابين البحر وكل الكائنات الحية التى تنزلق وتعج فى البحار ، كل بحسب جنسه وكل ذى جناح بحسب جنسه . ورأى الله ذلك أنه حسن . وباركها الله قائلا : « أثمرى وأكثرى واملئى البحار وليتكاثر الطير على الأرض . وكان ليل وكان نهار : اليوم الخامس . »

وتحتوى هذه الفقرة على مزاعم لا يمكن قبولها .

يقول سفر التكوين بظهور عالم الحيوان أولا وابتداء من حيوانات البحر والطيور . الواقع أن رواية التوراة تقول إن فى اليوم التالى – كما سنرى ذلك فى الآيات التالية – أسكنت الأرض بالحيوانات .

ولا شك أن أصل الحياة مائى : وسننظر فى هذه المسألة فى الجزء الثالث من هذا الكتاب . وابتداء من هنا ، إن جاز القول ، احتلت عالم الحيوان الأرض . ومن الحيوانات التى تعيش على سطح الأرض ، وهى فئة خاصة من الزواحف تسمى Pseudo-suchiens كانت تعيش فى العصر الثانى . جاءت الطيور ، فيما يعتقد : وهناك كثير من السمات البيولوجية المشتركة بين هاتين الفئتين التى تسمح بهذا الاستنتاج . ولكن سفر التكوين لا يشير إلى الحيوانات الأرضية إلا فى اليوم السادس بعد ظهور الطيور . وإذن فنظام ظهور الحيوانات الأرضية والطيور هذا غير مقبول .

الآيات من ٢٤ إلى ٣١ – « وقال الله : لتخرج الأرض الكائنات الحية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش كجنسها » . وكان كذلك . عمل الله الوحوش كجنسها والدبابات كجنسها وكل دبابات الأرض كجنسها . ورأى الله ذلك أنه حسن . »

« وقال الله : « لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا . ويتسلطو (كذا) على سمك البحر وعلى طيور السماء وعلى البهائم وعلى كل الوحوش والدبابات التى تزحف على الأرض . »

فخلق الله الإنسان على صورته . وعلى صورة الله خلقه ، ذكر وأنثى خلقهما .

« وباركهما الله وقال لهما : أثمرا وأكثرا واملآ الأرض وأخضعاها ، وتسلطا على سمك

البحار وطيور السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض . « وقال الله : إنى قد أعطيتكما كل بقل يحمل بزراً على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر ويحمل بزراً . لكما يكون طعاما ، ولكل الوحوش ولكل طيور السماء ولكل دبابة على الأرض وكائن حى أعطيت كل خضرة النباتات طعاماً » وكان كذلك . ورأى الله كل ما عمله : فإذا هو حسن جدًّا . وكان مساء وكان صباح : اليوم السادس » .

فى وصف تمام الخلق يعدد الكاتب كل المخلوقات الحية غير المذكورة سابقاً ويشير إلى الأقوات المختلفة الموضوعة تحت تصرف الناس والحيوانات .

وكما نرى فإن الخطأ يكمن فى وضع ظهور الحيوانات الأرضية بعد ظهور الطيور . ولكن ظهور الإنسان على الأرض محدد بشكل صحيح بعد ظهور الفئات الأخرى من الكائنات الحية .

وتنتهى رواية الخلق بالآيات الثلاثة الأولى من الإصحاح الثانى : « فأكملت السموات والأرض بكل جندها (كذا) . وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل . فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله للخلق . هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت » .

تتطلب رواية اليوم السابع هذه التعليقات :

أولا معنى الكلمات . والنص هو نص ترجمة مدرسة الكتاب المقدس بالقدس . « جند » تعنى هنا على الأرجح حشد الكائنات المخلوقة . أما فيما يخص التعبير (استراح) "Il choma" فتلك طريقة مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس فى ترجمة الكلمة العبرية «شباط» والتى تعنى ذلك على وجه الدقة ، ومن هنا جاء يوم الراحة عند اليهود (يوم السبت) .

وواضح أن هذه « الراحة » التى يفترض أن الله قد أخذها بعد أن عمل ستة أيام ، هى أسطورة . ولكن لها تعليل . إذ لا يجب نسيان أن رواية الخلق المدروسة هنا تأتى من النص الذى يسمى بالكهنوتى كتبة الكهنة أو الكتبة وهم الوريثون الروحيون لحزقيال نبى النفى ببابل فى القرن السادس قبل الميلاد . ومعروف أن هؤلاء الكهنة قد أعادوا روايتى الخلق اليهوية والألوهيمية وأعادوا صياغتهما على مشيئتهم وحسب اهتماماتهم الخاصة التى كتب الأب ديفو

عنها قائلا إن طابعها «التشريعى» كان جوهريًّا . وقد أعطينا عاليه لمحة عن ذلك .

على حين لا يشير النص اليهوى - الذى يسبق النص الكهنوتى بعدة قرون ، إلى راحة الله الذى تعب من عمله طيلة الأسبوع ، يدخلها الكاتب الكهنوتى فى روايته . إنه يقسم روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق لأيام الأسبوع . وهو يضع محور الرواية على راحة السبت التى يعللها أمام المؤمنين مؤكدا على هذا بقوله إن الله هو أول من احترمها . وابتدأ من هذه الضرورة العملية انتقاد رواية الخلق بمنطق دينى ظاهر وإن كان هذا بشكل تسمح معطيات العلم بوصفه بالوهم .

إن إدراج مراحل الخلق المتعاقبة فى إطار أسبوع ، هذا الإدراج الذى أراده الكاتب الكهنوتى بهدف الحث على الطاعة الدينية ، لا يقبل الدفاع من وجهة النظر العلمية . فمعروف تماماً فى أيامنا أن تشكل الكون والأرض – وسنعالج هذا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب بالنسبة للمعطيات القرآنية الخاصة بالخلق – قد تم على مراحل تمتد على فترات زمنية شديدة الطول لا تسمح المعطيات الحديثة بتحديد مدتها حتى تقريبيًّا . وحتى إذا كانت الرواية تنتهى مساء اليوم السادس ولا تحتوى على إشارة إلى اليوم السابع ، يوم الراحة الذى استراح فيه الله ، وحتى إذا كان مسموحاً لنا ، كما هو الأمر بالنسبة للرواية القرآنية ، أن نعتبر أن المقصود فعلاً هو فترات غير محددة وليس أياماً بالمعنى الحقيقى ، فإن النص الكهنوتى يظل غير مقبول ، حيث إن تعاقب الأحداث فيه يناقض المعلومات العلمية الأصلية .

وهكذا إذن تبدو الرواية الكهنوتية للخلق كبناء خيالى مبتكر كان يهدف إلى شىء آخر غير التعريف بالحقيقة .

الرواية الثانية

لا تسمح بنفس الانتقادات رواية الخلق الثانية التى يحتوى عليها سفر التكوين والتى تلى دون انتقال ودون تعليقات الرواية السالفة .

ولنذكر بأن هذه الرواية ترجع إلى تاريخ أكثر قدماً من الأولى بحوالى ثلاثة قرون . هى

رواية قصيرة جدًّا . ولكنها أكثر إفاضة فيما يخص خلق الإنسان وجنة الأرض مما يخص خلق الأرض والسماء الذى تذكره بإيجاز شديد . تقول هذه الرواية . «عندما عمل يهوه الرب الأرض والسماء ، كل شجر البرية لم يكن بعد فى الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد لأن يهوه الرب لم يكن قد أمطر على الأرض . ولا كان إنسان ليفلح الأرض ، لكن ، كان سيل يطلع منها ويسقى كل وجهها . وعندئذ جبل يهوه الإنسان من طين الأرض . ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حية » (الإصحاح ٢ الآيات ٤ ب إلى ٧) .

تلك هى الرواية اليهوية الموجودة فى نصوص كتب العهد القديم التى نملكها حاليًّا . هذه الرواية التى أضيفت إليها فيما بعد الرواية الكهنوتية هل كانت على هذا القدر من القصر . . ؟ لا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كان النص اليهوى قد قطع عبر الأزمنة ، ولا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كانت السطور القليلة التى فى حوزتنا تمثل فعلاً كل ما كان يمكن أن يحتوى عليه أقدم نص للتوراة عن الخلق .

إن هذه الرواية اليهوية لا تشير إلى تشكل الأرض بشكل واضح وخاص ولا إلى تشكل السماء . إنه يدع للفهم الضمنى أن عند خلق الله للإنسان لم تكن هناك نباتات أرضية (فلم يكن المطر قد نزل بعد) ، هذا برغم أن المياه الآتية من العمق كانت تغطى سطح الأرض . وتؤكد هذا البقية التالية للنص : زرع الله بستاناً فى نفس الوقت الذى خلق فيه الإنسان . وهكذا يظهر عالم النبات فى نفس وقت ظهور الإنسان على الأرض ، وهذا علميًّا خطأ : فقد ظهر الإنسان على الأرض حين كانت الأرض منذ زمن بعيد حاملة للنباتات ، وإن كنا لا نستطيع أن نقول كم من مئات ملايين السنوات قد مرت بين الحدثين .

ذلك هو الانتقاض الوحيد الذى يمكن توجيهه إلى النص اليهوى للخلق . فيما أنه لا يحدد فى الزمن لحظة خلق الإنسان بالنسبة إلى تشكل العالم وتشكل الأرض ، هذا الذى يضعه النص الكهنوتى فى نفس أسبوع الخلق ، فإنه يفلت من انتقاد خطير كان يوجه لهذا الأخير .

تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض

لما كان التقويم اليهودى مؤسساً بالتوافق مع معطيات العهد القديم ، فإنه يحدد هذين التاريخين بدقة : إن الجزء الثانى من عام ١٩٧٥ المسيحى يتفق مع بداية العام ٥٧٣٦ منذ خلق العالم ، إذن فالإنسان الذى يجىء خلقه بعد خلق العالم بعدة أيام قديم نفس القدم الذى يحصيه التقويم اليهودى لخلق العالم .

وهناك ولا شك تصحيح يجب إجراؤه بسبب إحصاءات الزمن التى كانت تحسب أولاً بالسنوات القمرية ، على حين يتأسس التقويم الغربى على السنوات الشمسية . ولكن هذا التصحيح الذى يبلغ ٣ ٪ والذى يمكن عمله إذا أردنا أن نكون فى منتهى الدقة ، قليل الأهمية . وحتى لا نعقد الحسابات يحسن أن نمتنع عنها . ما يهم هنا هو حجم الكبر التقريبى ولا يهم إذا كان رقم السنوات بالألف بهامش خطأ يبلغ ٣٠ سنة . ولكى نكون أكثر قرباً من الحقيقة لنقل إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبرى يحدد تقريباً بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد .

ماذا يعلمنا العلم الحديث . . ؟ عسيرة هنا الإجابة عما يتعلق بتكون الكون . وكل ما يمكن ترقيمه هو عصر تكون النظام الشمسى الذى يمكن تحديده زمنيًّا بتقريب مرضٍ . ويقدر الزمن الذى يفصلنا عن تكون النظام الشمسى بأربع مليارات ونصف من السنوات . وبهذا نقيس الهامش الذى يفصل الواقع الثابت اليوم (والذى سنعود إليه فى الفصل الثالث من هذا العمل) عن المعطيات المستخرجة من العهد القديم . إنها تنبع من دراسة دقيقة لنص التوراة . ويعطى سفر التكوين إشارات دقيقة جدًّا عن الزمن الذى جرى بين آدم وإبراهيم . وأما بالنسبة للفترة الممتدة من إبراهيم وحتى العصر المسيحى فإن المعلومات المعطاة غير كافية . ولابد من إكمالها بالاستعانة بمصادر أخرى .

١ – من آدم إلى إبراهيم

يقدم سفر التكوين ، فى أنسابه بالإصحاحات ٤ و ٥ و ١١ و ٢١ و ٢٥ ، معطيات غاية فى الدقة عن كل أسلاف إبراهيم من صلب مباشر منذ آدم ، ولما كان سفر التكوين يعطى مدة حياة كل منهم وعمر الأب عند ميلاد الابن ، فإنه يسمح بيسر بتحديد تواريخ ميلاد ووفاة كل سلف بالنسبة إلى خلق آدم كما هو مشار إليه فى الجدول التالى .

ألف هذا الجدول حسب المعطيات الآتية كلها من النص الكهنوتى لسفر التكوين : وهو النص الوحيد فى التوراة الذى يعطى تحديدات من هذا النوع . ومنه يستنتج أن إبراهيم ، كما تقول التوراة ، قد رأى النور فى عام ١٩٤٨ بعد آدم .

obeikandl.com

أنساب إبراهيم

	تاريخ الميلاد بعد خلق آدم	مدة العمر	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
١ – آدم	٠٠	٩٣٠	٩٣٠
شيت	١٣٠	٩١٢	١٠٤٢
أنوش	٢٣٥	٩٠٥	١١٤٠
قينان	٣٢٥	٩١٠	١٢٣٥
مهللئيل	٣٩٥	٨٩٥	١٢٩٠
يارد	٤٦٠	٩٦٢	١٤٢٢
أخنوخ	٦٢٢	٣٦٥	٩٨٧
متوشالح	٦٨٧	٩٦٩	١٦٥٦
لامك	٨٧٤	٧٧٧	١٦٥١
١٠ – نوح	١٠٥٦	٩٥٠	٢٠٠٦
سام	١٥٥٦	٦٠٠	٢١٥٦
أرفكشاد	١٦٥٨	٤٣٨	٢٠٩٦
شالح	١٦٩٣	٤٣٣	٢١٢٢
عابر	١٧٢٣	٤٦٤	٢١٨٧
فالج	١٧٥٧	٢٣٩	١٩٩٦
داعو	١٧٨٧	٢٣٩	٢٠٢٦
سروج	١٨١٩	٢٣٠	٢٠٤٩
ناحور	١٨٤٩	١٤٨	١٩٩٧
تارح	١٨٧٨	٢٠٥	٢٠٨٣
٢٠ – إبراهيم	١٩٤٨	١٧٥	٢١٢٣

obeikandi.com

٢ – من إبراهيم إلى العصر المسيحى

لا تعطى التوراة عن هذه الفترة أية معلومات حسابية من شأنها أن تقود إلى تقويمات دقيقة كتلك التى يعطيها سفر التكوين عن أسلاف إبراهيم . ولكى نقدر الزمن الذى يفصل بين إبراهيم والمسيح علينا أن نستعين بمصادر أخرى . ويحدد حاليًّا عصر إبراهيم بحوالى ثمانية عشر قرناً قبل الميلاد وبهامش خطأ صغير . وهذه المعطية المؤلفة من إشارات سفر التكوين عن الفترة الزمنية التى تفصل بين إبراهيم وآدم تقود إلى تحديد تاريخ هذا الأخير بحوالى ثمانية وثلاثين قرناً قبل المسيح . وهذا التقدير خاطئ بلا أى جدل : وخطؤه يأتى من الغلط الذى تحتويه التوراة عن المدة بين آدم وإبراهيم التى يعتمد عليها التراث اليهودى دائماً لتحديد تقويمه ، ونستطيع فى عصرنا أن نعارض الحماة التقليديين لحقيقة التوراة باستحالة اتفاق المعطيات الحديثة مع هذه التقديرات الوهمية التى عملها الكهنة اليهود فى القرن السادس قبل الميلاد . لقرون طويلة استخدمت هذه التقديرات كقاعدة لتحديد أحداث العصر القديم بالنسبة للمسيح .

كانت كتب التوراة المنشورة قبل العصر الحديث تقدم للقراء فى مقدمة توضيحية قائمة بتواريخ الأحداث التى وقعت منذ خلق العالم وحتى عصر نشر هذه الكتب ، وكانت الأرقام تتنوع قليلاً بحسب العصور ، على سبيل المثال تعطى نسخة Vulgate Cle'mentine (١٦٢١) مثل هذه الإشارات ، واضعة مع ذلك تاريخ إبراهيم بشكل مبكر قليلاً ومحددة الخلق بالقرن الأربعين قبل الميلاد تقريباً . أما توراة والتون Walton. متعددة اللغات ، المنشورة فى القرن السابع عشر ، فهى تعطى القارئ ، خارج نصوص التوراة فى لغات عدة ، جداول مماثلة لذلك الذى تحدد هنا بالنسبة لأسلاف إبراهيم . إن كل التقديرات متفقة ، فيما عدا اختلافات طفيفة ، مع الأرقام المقدمة هنا . وعندما جاء العصر الحديث لم يعد فى استطاعة الناشر الاحتفاظ بهذه القوائم الوهمية دون التعارض مع المكتشفات العلمية التى حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير ، اكتفى إذن بحذف هذه

الجداول والمقدمات ، وحاذر الناشرون من إعلام القارئ بخطأ نصوص التوراة هذه التى اعتمد عليها من قبل لتحرير هذه القوائم التاريخية والتى لم يعد فى الإمكان اعتبار أنها تعبر عن الحقيقة . فضلوا أن يلقوا عليها غلالة من الحياء وأن يجدوا صيغاً ديالكتيكية عالمة حتى يقبل النص كما كان من قبل دون أى حذف . وهكذا تجد قوائم الأنساب للنص الكهنوتى للتوراة مكان الصدارة دائماً ، على حين أنه لم يعد معقولاً فى القرن العشرين حساب الزمن بالاعتماد على مثل هذا الوهم .

أما فيما يخص تاريخ ظهور الإنسان على الأرض فالمعطيات العلمية الحديثة تسمح بتعريفه بأبعد من حد غير دقيق فقط . نستطيع أن نقتنع بأن الإنسان كان يوجد على الأرض ، بطاقة ذكائه وعمله الذى تجعله يختلف عن كائنات حية تبدو مقاربة له تشريحيًا ، فى فترة لاحقة على تاريخ يمكن تقديره ، ولكن لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهوره . ومع ذلك فيمكن أن نؤكد اليوم وجود أطلال لإنسانية مفكرة وعاملة ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين .

يعود هذا التاريخ التقريبى على نموذج إنسان ما قبل التاريخ الذى اعتبر أكثر النماذج قرباً للنموذج Neo-anthropiens (إنسان كرومانيون Cro-Magnon) . ولا شك أن هناك اكتشافات أخرى لبقايا يبدو أنها إنسانية قد تمت فى نقاط عديدة على الأرض ، وهى تخص أنماطاً أقل تطوراً paleo-anthropiens . ويقدر حجم قدمها بوحدات من مئات ألوف السنين ولكن هل هم حقًّا بشر حقيقيون . . . ؟

على أى حال فالمعطيات دقيقة بشكل كاف فيما يخص Neo-anthropiens وذلك يسمح بوضعهم أبعد بكثير من العصر الذى يحدده سفر التكوين لأوائل البشر ، هناك إذن استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض وبين أكثر المعارف تأسساً فى عصرنا .

الطوفان

الإصحاحات ٦ و٧ و٨ من سفر التكوين مكرسة لرواية الطوفان . وبشكل أدق هناك روايتان غير موضوعتين جنباً إلى جنب ، إنما هما تنفصلان فى مقاطع متداخلة كل فى الآخر وبمنطق ظاهر فى تعاقب مختلف الأحداث . الحقيقة أن فى هذه الإصحاحات الثلاثة تناقضات صارخة ، هنا أيضاً تتعلل هذه المتناقضات بوجود مصدرين متميزين بشكل جلى : أى المصدر اليهوى والمصدر الكهنوتى .

وقد رأينا أعلاه أن هذين المصدرين يشكلان تجميعاً متنافراً . فقد قطع كل نص أصلى إلى فقرات أو عبارات وهذا مع تعاقب عناصر كل مصدر مع عناصر المصدر الآخر ، بحيث إننا ننتقل من مصدر لآخر فى الرواية سبع عشرة مرة وذلك خلال مائة سطر تقريباً من النص .

والرواية فى شمولها هى ما يلى :

لما عم فساد البشر قرر الله تدميرهم مع كل المخلوقات الحية الأخرى . فحذر نوحاً وأمره ببناء السفينة التى سيدخل بها زوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاث وكائنات حية أخرى ، ويختلف المصدران بالنسبة للكائنات الحية : فهناك مقطع من الرواية (وهو كهنوتى الأصل) يشير إلى أن نوحاً قد أخذ زوجاً من كل نوع ، ثم يحدد المقطع التالى (وهو من الأصل اليهوى) أن الله قد أمر بأخذ سبعة من كل نوع ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة ، وزوجاً واحداً من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة . ولكن بعد ذلك يتحدد أن نوحاً لن يدخل إلى السفينة فعلاً إلا زوجاً من كل نوع من الحيوانات . ويؤكد المتخصصون ، مثل الأب ديفو ، أن المعنى به هنا هو مقطع معدل من الرواية اليهوية .

وهناك فقرة (وهى من الأصل اليهوى) يشير أن عامل الطوفان هو ماء المطر ولكن هناك فقرة أخرى (وهى كهنوتية الأصل) تقدم سبب الطوفان على أنه مزدوج أى ماء المطر والينابيع الأرضية .

تغطت الأرض حتى قمم الجبال وأعلى منها بالماء . وتدمرت فيها كل الحياة . وبعد سنة

خرج نوح من السفينة التى رست على جبل أراراط بعد الانحسار .

ولنضف أيضاً أن للطوفان ، حسب هذه النصوص ، مدتين مختلفتين : إذ تقول الرواية اليهوية أربعون يوماً فيضاناً ، على حين يقول النص الكهنوتى مائة وخمسون يوماً . ولا تحدد الرواية اليهوية تاريخ وقوع هذا الحدث من حياة نوح ، ولكن الرواية الكهنوتية تحدده بحين كان عمر نوح ٦٠٠ سنة . وتعطى نفس هذه الرواية إشارات عن موقعه الزمنى بالنسبة لآدم وبالنسبة لإبراهيم ، وذلك من خلال قائمة الأنساب . وحسب الحسابات المعمولة بعد الرجوع إلى إشارات سفر التكوين ، والتى تقول إن نوحاً قد ولد بعد ١٠٥٦ عاماً من آدم (انظر جدول أسلاف إبراهيم) ، فإن الطوفان يكون قد وقع بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق آدم وبالنسبة إلى إبراهيم فيحدد سفر التكوين الطوفان بـ ٢٩٢ سنة قبل ميلاد هذا الأب الأول .

ولكن ، كما يقول سفر التكوين ، يخص الطوفان كل الجنس البشرى . وكل الكائنات الحية التى خلقها الله قد أعدمت على الأرض حسب هذه الرواية . إن البشرية ، والأمر هكذا ، تكون قد أعادت تكوين نفسها ابتداء من أولاد نوح وزوجاتهم ، بحيث إنه ، عندما يولد إبراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها فى مجتمعات . كيف يمكن لإعادة البناء هذه أن تتم فى زمن قليل إلى هذا الحد . . . ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن النص أية معقولية .

أكثر من ذلك فالمعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة . والواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات ١٨٠٠ – ١٨٥٠ ق . م تقريباً . فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم ، كما يوحى بذلك سفر التكوين فى الأنساب ، فإن الطوفان يقع فى القرن ٢١ أو ٢٢ ق . م . وذلك هو العصر الذى كانت قد ظهرت من قبله فى نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التى تلتها : إن المعارف التاريخية الحديثة تسمح بتأكيد هذا .

على سبيل المثال فهذه الفترة ، بالنسبة لمصر ، هى التى تسبق الدولة الوسطى (٢١٠٠ ق . م) ، وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية

عشرة . وفى بابل أسرة أور الثالثة . ومن المعروف جيداً أنه لم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات وبالتالى لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة .

وبالتالى فلا يمكن اعتبار أن روايات التوراة الثلاث تصف للإنسان أموراً تتفق مع الحقيقة . وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فلابد أن نقبل أن هذه النصوص التى وصلت إلينا لا تمثل تعبير الحقيقة . هل أنزل الله شيئاً غير الحقيقة . . . ؟ الواقع أنه من غير الممكن تصور فكرة إله يعلم الناس بالاستعانة بأوهام بل بأوهام متناقضة . وطبيعى أن يثير ذلك افتراض وجود تحريف بواسطة البشر – إما فى الأقوال المتوارثة التى انتقلت شفهيًّا من جيل لآخر أو فى النصوص بعد تحديد هذه الأقوال المتوارثة . وعندما نعرف أن مؤلفاً مثل سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين ، وهذا على مدى ثلاثة قرون ، فكيف ندهش حين نجد فيه أموراً غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء ، منذ أن سمح تقدم المعارف البشرية ، إن لم يكن بمعرفة كل شىء ، فعلى الأقل بامتلاك معرفة كافية عن بعض الأحداث تسمح بإقامة الحكم على درجة اتفاق الروايات القديمة بهذه المعرفة . أى شىء أكثر منطقية إذن من الاكتفاء بهذا التفسير لأخطاء نصوص التوراة ، تلك التى لا تضع إلا الإنسان موضع النقاش . . ؟ وإنه لمن المؤسف ألا يأخذ بهذا التفسير عامة المعلقين مسيحيين كانوا أو يهودا . ومع ذلك فالحجج التى يدفعون بها تستحق الالتفات .

مواقف الكتاب المسيحيين تجاه الأخطاء العلمية فى نصوص العهد القديم ودراستها النقدية

يثير الدهشة حقًّا تنوع ردود الأفعال لدى المعلقين المسيحيين إزاء هذا الكم المتراكم من الأخطاء والمتناقضات والأمور غير المعقولة . بعضهم يقبل بعض الأخطاء ولا يتردد فى مواجهة المسائل الشائكة فيما يكتب . والبعض الآخر يصرف النظر برشاقة عن دعاوى غير مقبولة ويتقيد بالدفاع كلمة فكلمة عن النص ويحاول الإقناع عن طريق تصريحات مديحية مستعيناً فى ذلك بحجج كثيرة ، غير متوقعة فى غالب الأحيان ، يأمل بذلك أن يضفى غلالة من النسيان على ما يرفضه المنطق .

إن الأب ديفو ، فى مقدمة ترجمته لسفر التكوين ، يقبل وجود هذه الانتقادات ، بل يفيض حتى فى البحث عن وجاهتها . ولكن إعادة بناء أحداث الماضى عديم الأهمية فى رأيه . ويقول فى ملاحظاته إنه إذا كانت التوراة قد استأنفت « ذكريات سيل واحد مخرب – أو أكثر من واحد – وقع بوادى دجلة والفرات وإنه إذا كان التراث قد ضخم أبعاد كارثة عالمية » فإن ذلك لا يهم ، « إنما جوهر المسألة هو أن الكاتب الدينى قد حمل هذه الذكرى بتعاليم أزلية عن عدل ورحمة الله وعن خبث الإنسان والخلاص الممنوح للعادل . »

بهذا يبرر لتحول أسطورة شعبية إلى حدث إلهى المستوى – ليعرض بعد ذلك على إيمان البشر – ويتم هذا ابتداء من اللحظة التى يستخدم فيها كاتب ما الأسطورة باعتبارها تصويراً لدرس دينى . إن هذا الموقف المديحى يبرر كل تعسفات البشر فيما يختص بالأمور الإلهية ، ويغطى تعديلات البشر لتأليف نصوص التوراة . إن كل تعديل يصبح مشروعاً طالما كان هناك مرمى دينى . بهذا الشكل تبرر تعديلات كتاب القرن السادس « الكهنوتيين » ذوى الاهتمامات التشريعية التى أدت إلى تلك الروايات الوهمية التى نعرفها .

لقد رأى عدد كبير من المعلقين المسيحيين أنه من اللباقة أن يشرحوا الأخطاء والأمور غير المعقولة وتناقضات روايات التوراة وذلك بتقديم الاعتذار الذى يقول إن كتاب التوراة كانوا معذورين فى تقديم تصريحات ترتبط بعوامل اجتماعية لثقافة أو لعقلية مختلفتين ، وذلك ما أدى إلى تعريف «الأنواع الأدبية» الخاصة . إن إدخال هذا التعبير فى جدلية المعلقين الدقيقة تغطى عندئذ كل المصاعب . إن شرح أى تناقض بين نصين يكمن عندئذ فى الفرق بين طريقة كل كاتب فى التعبير وفى «طريقته الأدبية الخاصة» ولاشك أن الحجة ليست مقبولة لدى الكل ، فهى تفتقد فعلاً الجدية . برغم ذلك فهى لم تقع بعد تماماً فى غياهب النسيان فى عصرنا . وسنرى بالنسبة للعهد الجديد كيف يحاول البعض اعتسافاً شرح متناقضات صارخة فى الأناجيل .

وهناك طريقة أخرى فى إقناع الناس بما يرفضه المنطق إذا ما طبق على النص موضوع النزاع ، وهى إحاطة النص المقصود باعتبارات مديحة . وبذلك ينحرف انتباه القارئ عن المشكلة الأساسية الخاصة بحقيقة الرواية ليتجه نحو مشاكل أخرى .

إن تأملات الكاردينال دانيلو Danielou عن الطوفان التى ظهرت بمجلة «الله الحى Dieu Vivant» تحت عنوان «الطوفان والتعميد ، والحكم» تنتمى إلى هذه الطريقة فى التعبير ، يقول : «رأى التقليد الكنسى الأقدم فى لاهوتية الطوفان صورة للمسيح وللكنيسة» . إنه «حدث ذو دلالة عظيمة» و «حكم يقع على الأمة البشرية برمتها» . ويستشهد الكاردينال باوريجين Origene الذى يذكر فى مواعظه عن حزقيال Homelies sur Ezechiel غرق العالم برمته وإنقاذ السفينة له «وهو يذكر بعد ذلك قيمة الرقم ٨» الذى يعبر عن عدد الأشخاص الذين أنقذتهم السفينة : (نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الثلاث) . وهو يأخذ على عاتقه ما كتب جوستين فى كتابه «الحوار Dialogue» «لقد وهبوا رمز اليوم الثامن الذى فيه ظهر مسيحنا مبعوثاً من بين الموتى» . وكتب أيضاً : «أن نوحاً هو الوليد الأول لخلق جديد ، إنه صورة للمسيح الذى حقق ما يمثله نوح» (كذا) . ويتابع المقارنة بين نوح من جانب ، الذى أنقذه خشب السفينة والماء الذى يجعلها تطفو ومن جانب آخر ماء التعميد («ماء الطوفان الذى منه تولد

بشرية جديدة») وخشب الصليب . وهو يؤكد على قيمة هذه الرمزية ويختتم بالتأكيد على «الثراء الروحى والعقدى لسر الطوفان» (كذا . . . ؟) .

هذه التقريبات المديحية تدعو إلى كلام كثير . وعلينا أن نذكر مرة أخرى أنها تعلق على حدث يستحيل الدفاع عن صحته على المستوى العالمى وفى العصر الذى تقع فيه التوراة . فمع تعليق كتعليق الكردينال دانيلو نعود وراء إلى القرون الوسطى حيث كان النص يقبل كما هو وحيث لم يكن هناك مكان لأى بحث غير تقليدى .

ومع ذلك فإنه لما يبعث على التشجيع أن نلاحظ أن الفترة السابقة على عصر الظلام المفروض شهدت مفكرين اتخذوا مواقف منطقية مثل القديس أوغسطين الذى ينحو فى التفكير بطريقة تسبق عصره بشكل فريد .

ولاشك أن عصر آباء الكنيسة قد عرف مشاكل خاصة بنقد النصوص حيث إن القديس أوغسطين يتحدث عن واحدة منها فى خطابه رقم ٨٢ . والفقرة التالية هى أكثر فقرات هذا الخطاب تميزاً :

«إن مؤلفات الكتب المقدسة ، هذه التى تعرف بالقانونية هى فقط التى تعلمت أن أعطيها انتباهاً واحتراماً كاعتقادى الحازم بأنه ليس هناك أحد من كتابها قد أخطأ . فعندما ألتقى فى هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضة للحقيقة ، فإننى عندئذ لا أشك فى أن نص (نسختى) لا يحتوى على خطإ أو أن المترجم لم يترجم النص الأصلى بشكل صحيح أو أن مقدرتى على الفهم تتسم بالضعف» .

لم يكن معقولاً إذن بالنسبة للقديس أوغسطين أن نصا مقدساً قد يحتوى على غلط . كان القديس أوغسطين يعرف بمنتهى الوضوح عقيدة «العصمة من الخطأ "Inerrance" » فأمام فقرة تبدو مناقضة للحقيقة كان يواجه البحث عن علة ولا يستبعد فرض رجوع هذا الخطأ إلى سبب إنسانى . وهذا موقف مؤمن يتمتع بحاسة نقدية . وفى عصر القديس أوغسطين لم تكن هناك إمكانيات لمقابلة نص التوراة بالعلم . إن رؤية رحبة مماثلة لرؤيته تسمح – ولاشك – بتسطيح كثير من المصاعب التى تثار اليوم عند مقابلة بعض نصوص التوراة بالمعارف العلمية .

وعلى العكس من ذلك يجتهد المتخصصون فى عصرنا فى الدفاع عن نص التوراة أمام أى اتهام بالغلط . ويعطينا الأب ديفو فى مقدمته لسفر التكوين الأسباب التى تدعو إلى هذا الدفاع عن النص بأى ثمن حتى وإن كان واضحاً أنه غير مقبول تاريخيًّا أو علميًّا. إنه يطلب إلينا ألا ننظر إلى التاريخ فى التوراة «حسب قواعد النوع التاريخى الذى يمارسه المحدثون» . وكان هناك أكثر من طريقة فى كتابة التاريخ . إن التاريخ عندما يحكى بشكل غير صحيح يصبح رواية تاريخية وهذا ما يقبله الكل . لكن التاريخ هنا لا يخضع للقواعد المتعارف عليها والتى تنبع من مفاهيمنا . إن المعلق على التوراة يرفض أى فحص قد تقوم به علوم الجيولوجيا والإجاثة والمعطيات الخاصة بما قبل التاريخ على روايات التوراة . «إن التوراة» ، كما يقول الأب ديفو : لا تنتمى إلى أى من هذه الدراسات العلمية ، وإذا أردنا أن نقابلها بمعطيات هذه العلوم ، فإننا لن ننتهى إلا إلى تعارض غير حقيقى أو إلى توافق مصطنع»[1] . ويجب أن نلاحظ أن هذه التأملات قد دفع بها المؤلف إزاء ما لا يتفق مطلقاً مع المعطيات العلمية فى سفر التكوين وخاصة الأحد عشر إصحاحاً الأولى منه . ولكن . إذا كانت هناك بعض الروايات قد أمكن التحقق منها اليوم ، وعلى وجه خاص بعض الأحداث التى وقعت فى عصر الآباء الأولين ، فإن الكاتب لا يفتقد إلى الاستشهاد بالمعارف الحديثة لمساندة الحقيقة فى التوراة . يقول الأب ديفو[2] : إن الشكوك التى غيمت على هذه الروايات يجب أن تخلى المكان أمام الشهادة المؤيدة التى يأتى بها التاريخ أو علم الآثار الشرقيين» . بمعنى آخر : إذا كان العلم مفيداً فى توكيد رواية التوراة فلا بأس ، أما إذا دحضها فإن الرجوع إليه غير مقبول .

وللتوفيق بين ما لا يقبل التوفيق ، أى للتوفيق بين نظرية الحقيقة فى التوراة والطابع غير الصحيح لبعض الوقائع الواردة فى روايات العهد القديم ، اجتهد علماء اللاهوت المعاصرون فى مراجعة المفاهيم الكلاسيكية للحقيقة . ولكنا من إطار هذا الكتاب إذا ما قدمنا عرضاً تفصيليًّا للاعتبارات الدقيقة التى تفيض فى دراستها مؤلفات تعالج الحقيقة فى التوراة ،

---

(١) مدخل إلى سفر التكوين ص ٣٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٤ .

كدراسة ا . لورتز O.Loretz (١٩٧٢) وعنوانها «ما هى حقيقة التوراة»[١] . وعلينا أن نكتفى بالإشارة إلى هذا الحكم الخاص بالعلم :

ويلاحظ المؤلف أن المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى «قد حذر من إعطاء أى قواعد للتمييز بين الخطأ والحقيقة فى التوراة . وهناك اعتبارات أساسية تشير إلى الاستحالة هذه ، حيث إن الكنيسة لا تستطيع أن تتخذ قراراً بصحة أو زيف المناهج العلمية بحيث تستطيع أن تحل مبدئيًا وبشكل عام مشكلة حقيقة الكتاب المقدس» .

وواضح أن الكنيسة لا تستطيع أن تصدر حكماً عن قيمة «منهج» علمى ما كأداة للوصول إلى المعرفة . والمقصود هنا شىء آخر تماماً . فليس المقصود هو الجدل فى النظريات وإنما مناقشة أمور ثابتة فعلاً . أيحتاج المرء فى عصرنا لأن يكون حبراً عظيماً ليعرف أن العالم لم يخلق وأن الإنسان لم يظهر على الأرض منذ ٣٧ أو ٣٨ قرناً وأن هذا التقرير المستنبط من الأنساب فى التوراة يمكن التأكيد بغلطه دون المخاطرة بالوقوع فى الخطأ . . ؟ إن الكاتب المذكور هنا لا يستطيع تجاهل هذا . إن دعاواه عن العلم لا تهدف إلا إلى تحريف المشكلة حتى لا يعالجها كما كان يجب عليه أن يفعل .

إن التذكير بكل هذه المواقف التى اتخذها الكتاب المسيحيون أمام الأخطاء العلمية فى نصوص التوراة توضح جيداً الضيق الذى تجره وتوضح استحالة تعريف موقف منطقى آخر غير ذلك الذى يعترف بالأصل الإنسانى لهذه الأخطاء وباستحالة قبولها كجزء من تنزيل إلهى .

إن هذا الضيق الذى يسود الأوساط المسيحية والذى يمس التنزيل قد ظهر ترجمة له فى المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى (١٩٦٢ – ١٩٦٥) حيث لم يلزم أقل من خمس صيغ حتى يتفق الجميع على النص النهائى بعد ثلاث سنوات من المناقشات وحتى «ينتهى هذا الوضع الأليم الذى هدد بتوريط المجمع «على حد تعبير الأسقف فيبر Weber فى مقدمته للوثيقة المسكونية الرابعة عن التنزيل .

وهناك جملتان من هذه الوثيقة الخاصة بالعهد القديم (الفصل الرابع ، ص ٥٣)

---

(١) Editions du Centurion

تشيران إلى شوائب وبطلان بعض النصوص وبشكل لا يسمح بأية معارضة ، تقول :

« بالنظر إلى الوضع الإنسانى السابق على الخلاص الذى وضعه المسيح ، تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسان بما لا يقل عن معرفة الطريقة التى يتصرف بها الله فى عدله ورحمته مع الإنسان غير أن هذه الكتب تحتوى على شوائب وشىء من البطلان ، مع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهى » .

ليس هناك إذن أحسن من كلمتى « الشوائب » و « البطلان » اللتين تنطبقان على بعض النصوص التى تسمح بالنقد بل بأن تهجر ؛ ومبدأ كهذا مقبول بشكل واضح .

إن هذا النص جزء من تصريح شامل صوت عليه نهائيًا بأغلبية ٢٣٤٤ صوتاً ضد ٦ أصوات ، لا يبدو أن هذا التصريح قد اكتسب هذه الأغلبية الساحقة الصورية . فالواقع أننا نجد فى تعليقات الوثيقة الرسمية التى وقعها الأسقف فيبرجملة تصحح بشكل واضح الدعوى ببطلان بعض النصوص التى يحتوى عليها الإعلان الرسمى للمجمع . تقول : « لاشك أن بعض أسفار التوراة اليهودية تحتوى على مرمى وقتى وبها شىء غير كامل » .

إن « البطلان » ، وذلك هو تعبير الإعلان الرسمى ، لا يرادف « المرمى الوقتى » وهو تعبير المعلق ؛ وعندما يضيف المعلق بشكل غريب صفة « اليهودية » فإنه يوحى بأن النص المسكونى قد استطاع أن ينتقد فقط النسخة العبرية ، على حين أن ليس الأمر هكذا مطلقاً وأن العهد القديم هو الذى كان — فى هذا المجمع — موضوع الحكم الخاص بشوائب وببطلان بعض أجزاء منه .

خاتمة

لا يجب النظر إلى كتب التوراة بزخرفتها بدعيًّا بميزات نريد أن تتميز بها ، وإنما بأن ندرس موضوعيًّا ما هى عليه . وذلك لا يتضمن فقط معرفة بالنصوص بل يتضمن أيضاً معرفة بتاريخ النصوص . إن معرفة تاريخ النصوص تسمح ، فى الواقع ، بتكوين فكرة عن الظروف التى قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون وإلى التكون البطىء لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة .

إن هذه المعلومات تجعل ، معقولاً تماماً ، الوجود فى العهد القديم روايات مختلفة عن موضوع واحد وأخطاء تاريخية وأموراً متناقضة وأخرى غير معقولة أو يستحيل أن تتفق مع المعطيات العلمية الثابتة . إن استحالة الاتفاق مع المعطيات العلمية أمر طبيعى تماماً فى كل المؤلفات الإنسانية القديمة . وكيف لا نجد مثل هذه التعارضات فى كتب كتبت فى ظروف كتلك التى تكون فيها نص التوراة . . . ؟

إن رجلاً يتمتع بإدراك سليم مثل القديس أوغسطين قد استطاع – حتى قبل أن تثير مسائل المشكلات العلمية نفسها فى عصر لم يكن ممكناً الحكم فيه على أمور غير معقولة أو متناقضة – استطاع أن يطرح مبدأ استحالة أن يكون أصل الدعوى المناقضة للحقيقة إلهياً : فالقديس أوغسطين كان يعتبر أن الله لا يمكن أن يعلم البشر بما لا يتفق والحقيقة . وكان على استعداد لأن يستبعد من أى نص مقدس ما كان يمكن أن يبدو له واجب الحذف لهذه الدوافع .

وفيما بعد – فى عصر أدرك فيه المفكرون استحالة اتفاق بعض فقرات التوراة مع المعارف الحديثة – فإنهم يرفضون اتباع موقف القديس أوغسطين . عندئذ شهدنا مولد الأدب الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ ، برغم أنف كل شىء ، بنصوص لم يعد لها مكان فى التوراة .

إن المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى (١٩٦٢ – ١٩٦٥) قد خفف بشدة من هذا

التصلب وذلك بإدخال تحفظ على «أسفار العهد القديم» التى «تحتوى على الشوائب وشيء من البطلان» . ترى هل يبقى هذا التحفظ مجرد تعبير عن نية طيبة أو سيتبعه تغير فى الموقف إزاء ما لم يعد القرن العشرون يقبله فى نصوص كانت تهدف أن تكون مجرد «شهادات عن تعليم إلهى حقيقى» وذلك خارج أى تعديل بشرى .

obeikandl.com